فقدان الواقع واستعادته

سيرة ذاتية لفتاة فصامية

REALITY LOST AND REGAINED

Autobiography of a Schizophrenic Girl

ترجمه عن الانجليزية

د. محمد أحمد خطاب

أ. مروة فتحى محمد

مراجعة وتقديم

أ. د. صفوت فرج

مكتبة الأنجلو المصرية

محتويات الكتاب

الجزء الثانى

(التفسير)

الجزء الثالث

تقديم

أ.د / صفوت فرج

يبدو من الصعوبة بقدر كبير تقديم هذا العمل المتميز فى التحليل النفسى وفى العلاج النفسى بالتحليل ، وذلك لآسباب كثيرة .أولها أن التحليل النفسى لة لغة خاصة لا يجيدها الا أتباعة ،ومنطق معين لايدركة الاصفوة من يعايشون تراثة ،وهى أمور لا أستطيع أن أدعيها .فبالنسبة لى كأديمى متخصص تتجة اهتماماتة نحو الاسس النقدية لنظريات ومناحى العلم المختلفة مع ميل واضح الى فلسفة ومنطق المدرسة السلوكية المعرفية أجد الامر عسيرا حيث انظر لاصحاب التحليل النفسى باعتبارهم يعتنقون مذهبا ،وينتمون الى طائفة .بينما السلوكيون يقبلون – من موقف علمى – منطق السلوكية بعد اختبار وسائلها وأساليبها ونتائجها ،وهو منظور يظهر بداية كما لو كان متميزا ويصعب الدفاع عنة ويصادر على حقى فى تقديم هذا العمل الرائع .

السبب الثانى أن هذا العمل ليس عن التحليل النفسى ولكنة فى التحليل النفسى ،وهو ما يزيد الامر صعوبة فهو يجعل الامر سياحة فى العمق لرجل لايجيد الا سباقات المسافات الطويلة – أو القصيرة – على الارض السلوكية والمعرفية المنبسطة .

ومن ناحية ثالثة نتعلم من السلوكيون التعامل بمفاهيم وتكوينات

تتسم بالصلابة،أقرب لقطع الاحجار وقوالب البناء هى قوانين صارمة وتدخلات محسوبة،ونتائج عيانية ملموسة بينما يتعامل التحليل النفسى بمواد مرنة،تصل الى حد السيولة أحيانا تهرب من بين اصابعك اذا لم تكن مدربا ومهيئا للامساك بها ومتابعة تغيراتها وتحولاتها التى تنتقل بسرعة من صورة الى اخرى.

كانت كل هذة العوائق والصعاب شديدة الوضوح أمام عينى،وكانت كافية وحدها لتكون محبطة تماما وتدعو للتراجع والعودة لمنطقة ألامان السلوكية والمعرفية.

ولكن بعد قرأءة هذة السيرة الذاتية الممتعة وتفسيرات المعالجة وجهدها أصبحت المهمة امامى محفزة لا محبطة.وبعد تفكير متأنى رأيت أن لا أتراجع عن هذة المغامرة واتقدم نحوها على الرغم من أن كل ما على هو الوقوف على اعتابها دون الخوض فى تفاصيلها أو المشاركة فيها.

رأيت أن أبحر مع هذة التجربة العلاجية التى تتسم بالجرأة الكبيرة والمفعمة بالحيوية والتى تنسى القارئ أيا من توجهاتة الاخرى سواء السلوكية أو المعرفية على امتداد صفحاتها وتجعلة يفكر من جديد فى كل المفاهيم المعلنة والمضمرة التى نستخدمها نحن العاملون فى علم النفس أوتنشغل بها أذهاننا ونحن وقوف امام حالة نموذجية للاضطراب العقلى والوجدانى بدأت بمشاعر اللاواقعية المرضى لدى صاحبتها منذ كانت فى الخامسة فى عمرها واستمرت معها زهاء عشر

سنوات،هى اذن حالة فصام مزمن مر بتطورات مختلفة،هى كما سيرى القارئ تطورات فى شدة المرض ونوع الاعراض ومضمون الهلاوس الذهانية بصورة تجعل الطبيب النفسى يفقد الامل فى جدوى العلاج أو امكانية تحقيق تحسن.

نقدم حالة رينية صاحبة هذة القصة والتجربة الثرية باعتبارها حالة فصامية تقليدية،العرض الرئيسى فيها هو فقدان الواقع أوالخلط بين الواقع واللاواقع مع نكوص طفلى حاد الى المرحلة الفمية اخذ العديد من المظاهر.

من هنا فقد أختط العلاج التحليلى منحى اعادة تشكيل الشخصية وتطويرها بدءا من هذة المرحلة الارتقائية المبكرة فى خطوات متدرجة لاختبار الواقع وتمييزة وتشجيع التعامل معة حتى أصبح من الممكن تحول الخيالات الى دمى فارغة ثم تحول هذة الاخيرة الى كائنات حية.فى مرحلة كانت رينية تقاوم فيها الضلالات وتتشبث بالوعى.وهو الامر الذى يشير الى حقيقة أن هناك نوع وقدر من المقاومة الشديدة للأعراض المرضية يقوم بة المريض جاهدا وينجح خلالة احيانا ويفشل احيانا أخرى.فى الوقت الذى يتعين علينا فية أن نعرف حقيقة أن المريض عندما يعانى من الهلاوس (الضلالات) البصرية أو السمعية فهو لايرى أويسمع اشياء لاوجود لها فى الواقع،بل يرى أويسمع اشياء موجودة بالفعل وهذة هى المشكلة الرئيسية التى تؤدى الى الخلط بين

الواقع واللاواقع،ثم سيادة اللاواقع تحت ضغط الهلاوس وشدتها .وهذا ما عانت منة رينية خلال فترات مختلفة على امتداد تاريخها المرضى ويتطور العلاج بين نجاح وفشل ترصدها المعالجة بكل امانة ودقة وتنحو الى تفسير اسبابهما والعوامل المصاحبة أو المفسرة لهما.

الامر المدهش فى هذة التجربة الثرية هو قدرة المريضة على استعادة خبراتها المرضية بصورة تكاد أن تكون تفصيلية فهى تذكر وتحدد بالسنوات والشهور واحيانا بالايام الكثير من الخبرات التى عانتها والاكثر من ذلك انها تستخلص دلالات بعض هذة الخبرات - ويختلط الامر فى العرض بين ما اذا كان ذلك بعد شفائها ام اثناء مرضها - لقد كنا فى حاجة لمعرفة متى بدأت فى تسجيل هذة الخبرة العميقة وبعد مضى اية فترة من شفائها.

هل يمكننا ان نتخيل حالة متطرفة فى فقدانها للواقع مصحوبة بضلالات شديدة تستطيع الاحتفاظ بهذا القدر من تفاصيل الاحداث والمشاعر ومراحل المرض التى قطعتها وتطورها بالصورة التى تسمح لها بالتعبير عنها بهذا الوضوح والتسلسل؟

انة موقف يثير الكثير من الشك فى معلوماتنا عن المرض النفسى،الفصام على وجة الخصوص ومدى غيبة المريض عن الواقع خلالة او تعطل الذاكرة وتشوهها بما يقطع الصلات المتبقية بين الواقع المفقود والواقع المسترد.

أذكر يوما جاءنى فية احد تلامذتى،وهو استاذ فى علم النفس فى احدى جامعاتنا،وكان قد عانى لفترة طويلة من الفصام أدخل المستشفى نتيجة لها عدة مرات.جاءنى بمقال لنشرة فى مجلة دراسات نفسية عندما كنت اتولى رئاسة تحريرها وقرأت المقال فاذا بة تسجيل دقيق لخبرتة المرضية وتطورها ومضمون هذاءاتة،ومنظورة لهذة الخبرة كمتخصص فى علم النفس وكيفية مقاومتة لاعراضة المرضية ولمحات من سلوكة خلال اطوار المرض.وعلى الرغم من ان المقال لم يكن اكاديميا بالمعنى التقليدى المتعارف علية او بالمواصفات المعيارية للمقال البحثى،فقد شجعت بشدة نشرة باعتبارة خبرة حية تستحق ان نتوقف امامها بتأن شديد لنتعلم منها كيف نشاهد الاضطراب من الداخل،أوكيف تكون الملاحظة بالمشاركة وهو اسلوب بحثى نفتقدة فى التعامل مع الاضطرابات الكبرى.

تذكرنى حالة رينيه بحالة الزميل الذى شاركنا فى معايشة خبرتة الفصامية.فاذا عدنا الى رينية فسنجد اضافة اخرى هى التى اسهمت بها معالجتها مارجريت سيشهاى المحللة النفسية التى قامت باعادة صياغة الاحداث المرضية فى مفاهيم فرويدية مستعينة فى بعض الحالات بمفاهيم بياجية مفسرة الفصام فى حالة رينية باعتبارة نكوصا حادا فى الشخصية،واختطت فى علاجها منحى اعادة بناء الشخصية بدءا من المراحل الطفلية المبكرة متخذة من المرحلة الفمية نقطة انطلاقها.فهى تشبع احتياجها المفقود الى ثدى الام: اريد تفاح

حقيقى،تفاح ماما....مثل هذا واشارت الى صدرها وتستجيب لنداءها لتساعدها على تناول الطعام عندما امتنعت عنة حان الوقت لتشربى لبن تفاحات ماما..لم تكن هذة استجابة وقتية للمساعدة على تناول الطعام بل خطوة اولى للتعامل مع اضطراب الشخصية وفهم عميق لضرورة البدء باعادة تنظيم الارتقاء من المرحلة الفمية ليعود الى التقدم السوى نحو مراحل النضج والشفاء.

لعبت المعالجة دور الام المفتقدة بالاضافة الى دور المعالجة فقامت بالغاء المسافة المفترضة بين المريض والمعالج،وامسكت بالمفاتيح الرمزية والتشويهية لهذا الاضطراب الوجدانى،وفهمت رموز المريضة التى تستخدمها للتعبير عن معانى ذاتية تقصدها وتعد لغتها الخاصة،وقامت باختراق هذا النسق الرمزى لتخلق قنوات تواصل مع المريضة،قامت بكل ذلك بقدر كبير من النجاح.

وعلينا ان نتوقف قليلا هنا امام منحى المحللة او منحى التحليل النفسى بوجة عام.فالطبيب النفسى والمعالج النفسى الاكلينيكى ذو التوجة السلوكى او المعرفى السلوكى يتعامل مع الفصام باعتبارة صندوق مغلق،لايهتم بمحتواة من ضلالات وهذاءات ذات مضامين معينة،وبالتالى فهو فى غير حاجة الى فتحة او التعرف على محتواة من مواد تختلف من مريض الى اخر فهى تمثل الاعراض العامة والشائعة فى الفصام،وكل تعبيرات المريض او صرخاتة التى تخرج من هذا الصندوق الاسود لاتعنى الكثير بالنسبة للمعالج سواء كان طبيبا

نفسيا او معالجا معرفيا سلوكيا ولاتضيف الى العلاج الذى تتحدد اهدافة بداية فى خفض هذة الاعراض – دون النظر الى مضمونها – الى حدها الادنى اما التحليل النفسى الذى اختطتة سيشهاى فقد اتجة مباشرة الى النظر داخل الصندوق والتعامل مع مكوناتة....وهى المادة النفسية الخام التى تشكل الازمة المرضية بما جعلها تضع خطتها لاعادة بناء شخصية رينية فى اطار مفاهيم التحليل النفسى التى تتعامل مع مراحل تشكل هذة المادة الخام.

ربما كان هذا وراء السبب فى ان الطبيب النفسى يتعامل مع الاضطراب فى ضوء وجودة او اختفاءة دون اعتبار المضمون ما هو موجود وما يجب اختفاءة،فجميعها اعراض مرضية :الهلاوس هلاوس،والهذاءات هذاءات ولاقيمة لمحتواها.والاخصائى النفسى الاكلينيكى – السلوكى – يخطو خطوة ابعد او اقرب من ذلك،فهو يقصر اهتماماتة لا على وجود الاعراض او اختفائها،بل على تحسين مهارات المريض الاجتماعية ومهارات عنايتة بذاتة.ويختلف كل ذلك عن فتح الصندوق والكشف عن محتواة والجهد المبذول فى محاولة تشكيل هذا المحتوى واعادة انتظامة.

على الرغم من عدم وضوح التسلسل الزمنى الدقيق لهذة الخبرة المرضية العميقة التى خاضتها رينية فان الاحداث تكشف عن نجاح وفشل،تقدم وتأخر،قبض على الواقع فى لحظات وافلاتة فى لحظات اخرى وعودة ونكوص الى اللاواقعية.وعلى الرغم من عدم معرفتنا

ببرنامج العلاج الدوائى المصاحب،اذا كان هناك مثل هذا البرنامج،وانواع العقاقير ان وجدت وجرعاتها،والفترات التى استخدم فيها والاخرى التى توقف فيها،فقد وردت اشارة عبارة الى تناول رينية الدواء من الممرضة،مما يجعلنا ازاء معلومة جوهرية تؤدى غيبتها الى فقداننا القدرة على تقييم اثر العلاج بالتحليل النفسى منفردا مقابل العلاجات الاخرى،فالعلاج الدوائى اسهم دون شك فى تحقيق قدر من شفاء رينية،ونحن نجد من ناحية اخرى اشارة سريعة وعارضة لدواء الهيبودميس وهو عقار مهدئ كما يظهر من اسمة ولكننا لانعرف بقية العقاقير التى استخدمت.وهو امر يحيط شفاء رينية ببعض الغموض.نعم ربما اسهمت العقاقير فى علاج اضطراب التفكير وفى استعادة الوعى،غير ان هذا لايمنع اننا امام مشكلة نفسية حقيقة هى اضطراب صلة رينية بالواقع،واضطرابها الوجدانى المتمثل فى اختلال مراحل نموها النفسى وارتقاء شخصيتها وهذا ما تكفلت بالتعامل معة بنجاح معالجتها الماهرة.

وبعد فان مبادرة الدكتور/ محمد احمد خطاب ، والاستاذة /مروة فتحى لتقديم هذة الخبرة الثرية ومعالمها النفسية التى لاتلقى الكثير من الضوء على الفصام وحدة،بل وعلى التحليل النفسى ايضا وطريقتة فى التعامل مع الاضطرابات الكبرى انما تمثل خبرة تعليمية متميزة لشباب المعالجين،كما تضيف للمكتبة العربية نوعا من الكتابات تأخر وجودة كثيرا،ويسد نقصا كبيرا،كثيرا ما عانى منة الدراسون

المتعطشون لمعايشة الخبرات المتنوعة الواقعية والحية فى مجال العلاج التى يسهم فيها التحليل النفسى.

والشكر وحدة لهما لن يكون كافيا على ما بذلاة من جهد فى النقل الجيد والامين لهذا العمل مع الحفاظ على روحة التى تلمحها وكأنك تقرأ النص فى لغتة الاصلية.

أ.د / صفوت فرج

مقدمة المترجمان

الخوف وليد الجهل

(هرمان ملفيل)

إذا تأملنا مفهوم المرض فى الطب النفسى المعاصر، وجدناه يثير مشكلة كانت محور التفكير الفلسفى منذ أقدم العصور، أليس المرض النفسى مزيجاً فريداً من المعرفة والجهل؟ أليس العلاج بالتحليل النفسى ضرباً من الجدل بين الطبيب ومريضه تنبثق عنه معرفة هى الشفاء؟ ألا يذكرنا ذلك بالجدل عند سقراط؟ أن الشعار الفلسفى الأول اعرف نفسك هو الطريق إلى الحكمة وهو المعنى المتضمن فى منهج التحليل النفسى.

ولهذا فالإنسان -عادة- لا يعرف نفسه إلا حين يعرف للحياة معنى، والمعرفة هنا ليست غاية نسعى إليها، وإنما هى وسيلة للسيطرة على الأشياء وهو ما أشار إليه فرنسيس بيكون ومن بعده أوجست كونت فى قولهما: إذا عرفت استطعت. فبازدياد ثروتنا العقلية، تزداد وسائلنا الفنية والتطبيقية فى معالجة مشكلات الحياة المادية والمعنوية.

إلا أن تزييف المعرفة فى الأمراض العقلية والنفسية، عادة ما يرجع إلى اللبس بين الأخيلة وعالم الواقع، كأن الحدود التى تفصل بين الذات وما عداها قد انطمست معالمها، وهذا يتضمن بالضرورة ضرباً من التفكير السحرى، ما دام المريض يعجز عن التمييز بين ما هو ذاتى

وما هو موضوعى، فتكتسب رغباته قوة الواقع، ويتراءى له مصدر مخاوفه خارجياً، وهو فى الحقيقة داخلى، وبعبارة قصيرة فإن قدرة المريض على اختبار الواقع يعوزها السداد، وهو ما يحدث للنائم فى أحلامه، حتى صح القول بأن الحلم مرض عقلى يستغرق الليل، وأن المرض العقلى حلم طويل يستغرق الليل والنهار.

وعادة ما يتبين لنا أن تحليل اضطراب المعرفة لدى المرضى يردنا دائماً إلى مطلع حياتهم، أى إلى مرحلة الطفولة، وهذا يوحى إلينا بأن للمعرفة مسيرة تبدأ من الطفولة وتنمو كما ينمو كل ما يتصل بالكائن الحى، مع العلم بأن المعرفة هنا لا تستند إلى أساليب الاستنتاج المنطقى، وإنما تستند إلى إطلاق المريض لخواطره العنان، وهذا ما يساعده -أى المريض- على أن تتداعى له المعانى على نحو غير النحو المنطقى المألوف، وبعبارة أخرى: فإن إدراك اللبس هو الشفاء الذى يهدينا إلى معرفة الحقيقة الواقعة.

وفى ضوء ما سبق يعد هذا الكتاب بمثابة رحلة فى مجاهل النفس، تروى قصتها فتاة اضطرتها ظروفها النفسية والبيئية والاجتماعية والأسرية إلى ارتياد هذه المجاهل والغوص فى أعماق نفسها بحثاً عن الشفاء واكتماله، مستعينة فى ذلك بمحلل نفسى أصيل له من علمه وخبرته ما يتيح له أن يكون دليلاً ومرشداً مأموناً فى اجتياز طرقات متاهات النفس... وهو ما عبرت عنه رينيه -صاحبة هذه السيرة- بشكل واضح فى كلماتها التالية:

ولكن بعد أن جلست ماما –وتقصد هنا المحللة النفسية– بجوارى وتكلمت معى بصيغة الغائب، وأصبحت تفهمنى أكثر مما تبحث عن الأسباب وتحللها، شعرت بفرحة عارمة، كانت هى وحدها تستطيع كسر هذا الحاجز من الضلالات الذى يطوقنى ماما وحدها كانت تستطيع أن تجعلنى أتواصل مع الحياة.....

وكانت بداية المعرفة هنا لدى رينيه الفتاة الفصامية بمثابة الطريق إلى الشفاء من خلال استبصارها بحياتها الماضية والحالية، وعلاقتها بأمها والتى كانت ترفض إطعامها أو التواصل معها وجدانياً وحسياً ومعرفياً، ولهذا اعتبرت ميلانى كلاين أن الشهور الأولى من حياة الطفل، وما ينشأ خلالها من مشاعر موجبة أو سالبة تجاه النفس والآخرين هى أساس الموقف الفصامى، وهو ما أكده أيضاً وينكوت فى أن تكامل الأنا المنفصل يتبلور فى إحساس ثابت بالنفس، وأن الأم الطيبة تنمى نفساً حقيقية بينما تنمى الأم غير الطيبة نفساً زائفة تتحطم فى الذهان.

وفى هذا تكاد تجمع غالبية الدراسات التى أجريت فى مجال التحليل النفسى والخاصة بالطفل على أهمية العلاقة الباكرة بالموضوع الأم أو بالوحدة الأساسية فى النمو الأم– الطفل تلك العلاقة التى يتوقف عليها طبيعة النمو النفسى فى سوائه ومرضه، ولهذا يشير فرويد إلى أن الليبدو فى الطفل يتركز فى أناه، ومن ثم يسميه ليبدو الأنا والطفل فى سنواته الأولى لا يحتاج للعالم الخارجى، كل ما يهمه ما سوف نتبينه

فى ثنايا هذا الكتاب والذى يمثل السيرة الذاتية لفتاة فصامية، والذى يوضح لنا صدق هذه المقولة:

أنه لا يوجد أبناء مشكلين أو مضطربين بل يوجد آباء مشكلين ومضطرين، وخاصة أن أم رينيه كانت تتسم بالقسوة والجفاء وعدم التواصل الوجدانى أو الانفعالى مع ابنتها، وهذا ما جعل واقع رينيه واقع مضطرب ومؤلم ومحبط ومشوش، لم يتغير إلا عند خضوعها للتحليل النفسى على يد مارجريت سيتشهاى والتى أصبحت بديلاً إيجابياً عن الأم الأصلية المحبطة، ومن هنا بدأت المعرفة والفهم والوعى والاستبصار لدى رينيه والذى مهد الطريق إلى الشفاء التام من مرض الفصام والتى ظلت تعانى منه ومن قسوة أعراضه لفترة زمنية طويلة.

فكانت العلاقة بين رينيه والمحللة النفسية هى بمثابة إعادة ولادة Rebirthتم فيها إعادة بناء وترميم العلاقات الباكرة مع الموضوع الأم، وهو ما تسمح به مادة التحليل النفسى، والتى تشمل الشخصية بأسرها، وتتعلق بسيرتها ومجموع علاقاتها مع بيئتها وموضوعاتها المتنوعة، وإن فن التحليل النفسى ونظريته عن الشخصية وسيرتها وتركيبها وسلوكها يتناولان دائماً العلاقات التى ترتبط بين الأشخاص بعضهم ببعض، وهذا ما ساعد رينيه على استعادة واقعها وإدراكها له بالشكل السليم والبعيد عن الضلالات والهلاوس والهواجس والمخاوف، والتى كانت تعانى منها قبل معرفتها بمجاهل نفسها، هذا من جانب، ولكن من جانب آخر ماذا يعنى لنا الفصام Schizophrenia، وخاصة

أن الأقدمون قد عرفوا هذا المرض منذ تاريخ بعيد، ووصفوه بعدة طرق حتى بدأ كريبلين "Kraeplin" بتسمية هذا المرض بالخرف المبكر Dementia Precoxعام ١٩١١، اعتقاداً منه أنه مرض يتميز بالخرف ويبدأ فى سن مبكرة أى بعكس خرف الشيخوخة، وكان أول من سمى المرض بالفصام هو بلوير عام ١٩١١، أما معنى الكلمة الحرفى فمشتق من كلمتين، سكيز Schizومعناها الانقسام أو الانفصال وفرينا Phreniaومعناها العقل أى انقسام أو انفصام العقل، وليست الشخصية كما يعتقد الكثيرون.

ولهذا فإن الفصام ما هو إلا مرض ذهانى يتميز بمجموعة من الأعراض النفسية والعقلية التى تؤدى إن لم تعالج فى بدء الأمر إلى اضطراب وتدهور فى الشخصية والسلوك، وأهم هذه الأعراض اضطرابات التفكير، واضطرابات الوجدان والإدراك والإرادة والسلوك، وعادة ما يصيب الفصام حوالى ٠,٨٥٪ إلى ٣٪ من المجموع العام للسكان، كما يمثل مرض الفصام حوالى ٦٠٪ إلى ٧٠٪ من المرضى نزيلى مستشفيات الصحة النفسية، كما أن ٧٠٪ من حالات الفصام تظهر بين سن ١٥ إلى ٤٠ سنة، وتصل إلى أقصاها فى أواخر الحلقة الثالثة من العمر، وبالإضافة إلى الأعراض السابقة للفصام فهناك أعراض أخرى يمكن إيجازها كما يلى:

٢- **الضلالات Delusion**: وهو اعتقاد خاطئ يؤمن به

المريض إيماناً راسخاً لا يحيد عنه مع استحالة إقناعه منطقياً بعدم صحته مثل:

- **ضلالات الاضطهاد Persecutary**: كأن يشكو المريض من أناس تتعقبه وتعامله معاملة سيئة.

- **ضلالات العظمة Grandiose**: وفيها يؤمن المريض إيماناً راسخاً بأنه أذكى أو أقوى البشر أو أنه أوتى قوة خارقة للشفافية والكشف عن الظواهر الغيبية.

- **ضلالات توهم العلل البدنية (التوهم المرضى) Hypochondriasis:** وفيها ينتبه المريض انتباهاً مركزاً على وظائف أعضاء جسده، ثم اقتناعه بأنه يعانى من مرض لا يرجى شفائه.

- **ضلالات التأويل أو التلميح أو الإشارة Delusion of Reference**: وهنا يفسر المريض أى حركة أو إشارة أو كلمة أو حتى النشرات الإخبارية أو الإعلانات إنما تصدر للإشارة أو التلميح إلى تصرفاته مما يجعله ينعزل عن الآخرين.

- **ضلالات الأهمية أو المعرفة Delusions of Significance**: وفيه يعترى المريض اقتناعاً كاملاً بأنه على معرفة واتصال بكل ما يحدث فى العلن أو فى الخفاء.

- **ضلالات التأثير Delusion of influence:** وفيها يشعر المريض بأنه تحت تأثير قوى داخلية أو خارجية ويصبح أسير لهذه الأفكار.

٣- **الهلاوس Hallucinations:** وهى تعنى استجابات حسية لأشياء لا وجود لها، وقد تكون هذه الهلاوس:

- **هلاوس سمعية:** كأن يسمع المريض أصوات تناديه أو تأمره بأعمال أو أفعال ما.
- **هلاوس بصرية:** كأن يرى المريض أشياء أو أشخاص لا وجود لهم إلا فى عينه.
- **هلاوس شمية:** كأن يشم المريض روائح لا يشمها إلا هو.
- **هلاوس ذوقية:** كأن يحس المريض بطعم شىء غير موجود.
- **هلاوس لمسية:** وهنا يدرك المريض كأن أشياء تزحف على جلده أو تحت الجلد أو أن هناك أحد ما يضربه بآلات حادة أو صدمه بالكهرباء.

٤- **اضطراب السلوك:** ويتم التعبير عن اضطراب السلوك بالانزواء والعزلة سواء فى الحياة العائلية أو الاجتماعية أو الجنسية.

٥- **الأعـــراض الكتـــانونيـــة أو التـــصلبـــيـــة Catatonic Symptoms:** وتتمثل فى:

- السبات والذهول والغيبوبة الكتاوتونية.
- الوضع أو المداومة على حركة أو وضع معين.
- السلبية المطلقة.
- اضطراب الكلام.
- المداومة على الحركات المشابهة.
- الطاعة العمياء الأوتوماتيكية.

٦- **الأعراض الخاصة باضطراب الانفعال:** وتتمثل فى:

- **عدم اتساق الانفعال:** وهنا يستجيب الفصامى بالضحك فى حالة وجود خبر محزن أو يستجيب بالبكاء فى حالة وجود حدث سعيد، وقد يستجيب بالضحك والبكاء فى وقت واحد دون وجود أى موقف خارجى يستدعى ذلك الانفعال المختلط.
- **التبلد الانفعالى:** وهنا يصبح المريض غير مبال أو مهتم بالأحداث التى تدور حوله، ويستجيب لها الأفراد الآخرين.
- **شكل الانفعال:** يتعرض مريض الفصام لذبذبات انفعالية

مستمرة أو متكررة، فهو عرضه لحالات وقتية من النشوة والطرب والخوف والرعب والقلق، وتظهر هذه الانفعالات فجأة وتلقائية دون سبب أو تفسير.

٧- **الأعراض الخاصة باضطراب الإرداة:** وهنا يعانى المريض من عدم القدرة على المبادة بوضع الخطط أو تنفيذ الأنشطة الموجهة نحو هدف.

٨- **الأعراض الخاصة باضطرابات التفكير:** وتتمثل فى:

- **اضطراب التعبير عن التفكير:** وفيها يمزج المريض الواقع بالخيال، أو إقامة علاقات بين مفاهيم غير موجودة أو باستخدام ارتباطات وتفسيرات شخصية وذاتية للغاية.

- **اضطراب مجرى التفكير:** ويأخذ اضطراب مجرى التفكير عدة مظاهر كما يلى:

* **توقف التفكير:** وهنا يحدث توقف مفاجئ للتفكير وقد يتبعه بعد ذلك تتابع أفكار جديدة تماماً.

* **توقف الأفكار:** وهنا يشكو المريض من ازدحام رأسه بالأفكار المتعددة وعدم قدرته على التعبير عنها.

* **اضطراب التحكم فى الأفكار:** وتأخذ مظاهر متعددة منها ما يلى:

- **سحب الأفكار**: وهنا يشكو المريض من أن أفكاره تسحب منه بواسطة قوى خارجية أو من الآخرين.
- **إقحام الأفكار**: وهنا يشعر المريض أن هناك أفكار غريبة تفرض عليه بواسطة قوى خارجية لا يستطيع مقاومتها.
- **إذاعة وقراءة الأفكار**: وهنا يشعر المريض أن الناس يقرؤون أفكاره ويذيعونها دون تصريح منه بذلك.
- **اضطراب محتوى التفكير**: والمقصود هنا هو وجود الضلالات والهذاءات وهى عبارة عن معتقدات خاطئة لا يوجد لها أساس من المنطق أو غير متسق مع الواقع.

٩- **اضطراب اللغة**: ومن خصائص اضطراب اللغة لدى الفصامى ما يلى:

- عدم اتساق الحديث وعدم ترابطه.
- الحديث لفترة طويلة فى موضوعات تافهة.
- التوقف التام عن الحديث لمدة ساعات أو أيام.
- استخدام لغة جديدة خاصة بالمريض ولا يفهمها غيره من الناس.
- عدم القابلية للفهم.

تقسيم أنواع الفصام:

وعادة ما يتم تقسيم الفصام إلى عدة أنواع يمكن إيجازها كما يلى:

١- **فصام بسيط Simple:** ويبدأ فى سن مبكرة من سن ١٥ : ٢٥ سنة، وتطوره بطيء وتدريجى وينتهى بتدهور مستمر فى الشخصية ومن أعراضه اضطراب الوجدان واضطراب التفكير والتوهم المرضى.

٢- **فصام هيبفرينى (البلوغ/ المراهقة) Hebephrenic:** ويبدأ من سن ١٥ : ٢٥ سنة ومن أعراضه اضطرابات الإرادة والسلبية، واضطراب الوجدان والهلاوس.

٣- **فصام كتاتونى (تصلبى/ تخشبى) Catatonic:** وقد يأخذ شكلين، أولهما: فصام كتانونى منسحب فى شكل سبات وبكم أو أن يتخذ المريض وضع الجنين، وثانيهما: فصام كتانونى متهيج فى شكل نشاط حركى مفرط.

٤- **فصام بارانويدى Paranoid:** ويظهر بعد سنة ٣٠ سنة مصحوباً بوجود ضلالات والشعور بالاضطهاد وهذاءات العظمة.

٥- **فصام غير مميز Acute Undifferentiated:** عادة ما تكون بدايته حادة ومفاجئة وتنتهى بعد عدة أسابيع أو شهور

دون تدهور مصحوباً بتشوش الوعى واختلاط التفكير.

٦- **اكتئاب ما بعد الفصام Post-Schizophrenic Depression:** وهى عبارة عن نوبة اكتئابية قد تطول مدتها فى مرحلة تعقب مرضاً فصامياً.

٧- **الفصام المتبقى Residual:** وهو يعقب الإصابة بنوبة فصام حيث تظل بعض الأعراض الفصامية موجودة بصورة ضئيلة باهتة.

٨- **الفصام الوجدانى Schizo Affective:** وهنا يظهر مزيج من أعراض الفصام مع مظاهر صريحة من الاكتئاب أو الهوس.

٩- **أنواع أخرى غير محددة Unclassifed.**

أنواع العلاج الممكنة للفصام :

العلاج بالعقاقير، وبالكهرباء، والعلاج النفسى بأنواعه (الفردى والجمعى والأسرى)، أو علاجات اجتماعية ومهنية وتأهيلية وسلوكية، وتدريب المهارات الاجتماعية، والعلاج بالعمل.

إلا أن هذا الكتاب يتناول سيرة ذاتية لفتاة فصامية تم شفائها باستخدام العلاج بالتحليل النفسى، وهذا لا يعنى أنه العلاج الوحيد أو المنفرد بعلاج الفصام، فكل حالة أو مريض متفرد من حيث خصائصه العقلية والمعرفية والنفسية والجسدية والاجتماعية والأسرية والبيئية،

ولذلك يجب التعامل مع كل حالة على حدة واستخدام أسلوب العلاج المناسب لها.

كما يحتوى هذا الكتاب على جزءان يتم عرضهما كما يلى:

الجزء الأول: ويحتوى على السيرة الذاتية والخاصة بالفتاة رينيه الفصامية والتى تسرد فيه مرضها وخصائصه وأعراضه، وكيف تتطور، وكيف تم الشفاء منه، وعلاقتها بالمحللة النفسية وأثر ذلك على علاجها.

الجزء الثانى: ويشمل التفسير السيكولوجى لحالة رينيه من خلال وجهة نظر التحليل النفسى.

بالإضافة إلى ذلك، سوف يتم من جانبنا إضافة جزء ثالث لهذا الكتاب يضم شرح للمعانى والمصطلحات الواردة بهذا الكتاب لكى تعين القارئ العام والمتخصص لفهم معناها، ومن ثم فهم السياق العام لمحتوى هذا الكتاب الشيق والمثير للجدل والتفكير والتأمل، والذى جاء من اعترافات صادقة وصحيحة لفتاة اضطرتها ظروفها النفسية والاجتماعية والبيئية والعائلية إلى التماس العلاج بالتحليل النفسية، فتكشفت لها خبايا نفسها المجهولة، بمعونة محلل نفسى قدير، حتى توصلت إلى معرفة ذاتها الحقيقة والألفة معها، فتحقق لها بذلك شفاء النفس والجسم معاً.

د. محمد أحمد محمود خطاب

أ. مروة فتحي محمد سلامة

مقدمة المترجمة

Translators Preface

لا تعد الخبرات الشخصية السابقة للمرض العقلى خلال فترات التعافى أو الشفاء نادرة فى الأدب الشعبى أو الادب النفسى، وكثيرا مايقلل البحث عن توصيفات أدبية للمشاكل عند استرجاعها وكذلك تسلسل الاضطراب من القيمة العلمية لها.

وفى المثال الحالى سنجد بين أيدينا استعراض للاحداث الماضية المتحكم فيها، حيث لم تكن المحللة قادرة على تأكيد السلوك الظاهرى فقط ولكنها أيضا كانت قادرة على اكتشاف ردود أفعال المريضة الدقيقة فى إطار تطورها واكتشاف أخطاء المعالج الإجرائية، ومعرفة هذه الأخطاء الإجرائية يصبح إسهاما ذا قيمة فى التقنية العلاجية.

وتتضح مقاربة مارجريت سيتشهاى Marguerite Sechehaye للطفولة والتفكير الفصامى فى استعراضها لديناميات النكوص، وإعادة بناء ألانا egoمن خلال تحقيق الحاجات الأولية غير ان هذة الحاجات تتقدم فى الأهمية الأكلينكية من حيث انه اتجاه عملى للعلاج الرمزى الذى كان قادرا على إعادة المريضة إلى المستوى المرغوب من النكوص لتحقيق هذه القناعات التى ستسهم فى تطوير ألانا.

مرت راوية هذه القصة بنوع من الهوس المبتسر، حيث يصبح

التشخيص غير مرغوب فيه، ولكن من دون التدخل الفسيولوجى المكثف تطورت حالة المريضة وتعافت ووصلت لمرحلة البلوغ بصورة طبيعية. وتعد كيفية الوصول لهذه المرحلة بعد شيق جدا ومفيد لكل من يرتبط بهذا النوع من العلاج. وعلى الرغم من كثرة ما كتب عن الفصام إلا أن ما عرف عن هذا المرض ما زال قليلا للغاية، وهذا الكتاب يعرض الكثير من خلال وجهة النظر النفسية والتعديلات الفعالة.

جريس روبن - رابسون

Grace Rubin Rabson

فورت واين - إنديانا

Fort Wayne Indiana

مايو ١٩٥١

May , 1951

تقديم

Foreword

عندما كنت فى السادسة والعشرين بدأت كتابة مذكراتى، كان هناك كتابان أثرا فى بشدة هما مذكرات مارى ماكارثى Mary McCarthy's Memoirs "لفتاة كاثوليكية" لأنه اثبت لى انه حتى أن كانت الطفولة بائسة فانه من الممكن أن تصنع كتابا رائعا، والكتاب الثانى هو سيرة ذاتية لفتاة فصامية Autobiography Of a Schizophrenic "لأنه اثبت أن الكاتب يمكنه أن ينجح فى إعادة خلق حالات الوعى على الرغم من فشله فى فهم هذه الحالات وقت حدوثها.

سيرة ذاتية لفتاة فصامية هو كتاب معروف قليلا، نشره جرون ومستراتون (Grune and Stratton الناشرون الطبيون) The medical publishers. يحتوى الكتاب على ١٠٠ صفحة من مذكرات فتاة اسمها رينيه Renee و٥٠ صفحة تفسير مارجريت سيتشهاى المحللة النفسية لرينيه. هذا الكتاب كان هو المؤثر الرئيسى لى فى كتابة مذكراتى، وفى الحقيقة على الرغم من أن الكتاب مختصر وأسلوبه جاف إلا انه أسرنى لأعوام عديدة. لم تكن مذكرات رينيه روائية على عكس بعض الكتب المنتشرة لبعض مرضى الفصام الذين تعافوا من الفصام مثل كتاب لم أعدك أبدا بحديقة زهور Never Promised

.You a Rose Garden Iلم تتعمد رينيه أن تشخص الناس أو ترتب الأحداث ولم تركز على تفاصيل حسية مثلما قد يفعل بعض الروائيين، ولكنها حاولت أن تعيد خلق المشاعر فى عقل القارئ والتى كانت فى عقلها وقتما كانت مريضة من خلال استعارات ولغة سهلة بسيطة.

ولكن صعوبة هذه المهمة كانت واضحة فقد كانت تكتب عن مشاهد ومشاعر لم تستوعبها لغة حتى فى الوقت نفسة التى حدثت فيه.

وفى وصفها لاحدى هذه النوبات الأولى، تقول بطريقة مباشرة هذا كان أول ظهور لهذه العناصر التى كانت حاضرة دائما فى المشاعر التالية من الضلالات: الفضاء الوهاج، الضوء الساطع، لمعان ونعومة الأشياء المادية. وبدأت من هذه الجملة اقرأ بتمعن وحرص لان اللغة أصبحت منقحة ومقطرة بعناية وعلى الرغم من صعوبة هذا الموضوع إلا أن رينيه لم تكن لترضى بأى حل وسط. وترك الأمر لى لكى أتصارع مع الفضاء و الضوء الساطع وحفظتهم فى عقلى لعلى أجد لهم توضيحا تدريجيا. وتقول رينيه فى ذات يوم ما (نط الحبل) فى العطلة، كانت هناك فتاتان تقفزان الحبل الطويل وهناك فتاتان تقفزان من الجهة الأخرى للحبل ليتقابلوا ويتبادلوا الأماكن. عندما جاء دورى ورأيت شريكتى فى اللعب تقفز باتجاهى حيث يجب أن نتقابل ونتبادل الأماكن أصابتنى حالة من الهلع والفزع لأنى لم أدركها ولم اعرفها على الرغم من أننى أراها ولكنها لم تكن هى. عندما كانت تقف عند

الناحية الأخرى من الحبل بدت صغيرة وكلما اقتربنا أخذت تزداد طولا وحجما. فقدت رينيه الاستخدام التلقائى لقوانين الإدراك، كما فقدت فى أوقات أخرى الارتباط البصرى (الوحدة البصرية)، ورأيت خصائص وجهها الفريدة تفككت وتفرقت عن بعضها البعض، الأسنان ثم الأنف ثم الخدين ثم عين تبعتها الأخرى. ربما كان هذا استقلال كل عضو بذاته والذى منعنى من أن أدرك هذه الفتاه رغم معرفتى لها. ما نوع هذا العالم الذى تكتب رينيه عنه- حيث يرى الإنسان كل شىء ولا يدرك أى منه؟ ماذا يحدث عندما ترتبط عمليات اللاوعى للترتيب والارتباط مع انقطاع الإدراك وعندما يستمر الإدراك نفسه؟ هل يرى الشخص اقل أم أكثر من الحقيقة؟

ذات يوم بينما أنا فى مكتب مدير المدرسة، فجأة أصبحت الغرفة هائلة وأصبح ضوء الكهرباء ساطع ومحى هذا الظل المضلل. أصبحت كل فكرة محددة، ملساء اصطناعية، ومتوازية للغاية، بدت الكراسى والطاولات كنماذج وضعت هنا وهناك وتحول التلاميذ والمعلمين إلى عرائس الماريونت التى تدور بدون أدنى سبب أو منظور أو أى هدف. لم اعد أدرك أى شىء أو أى شخص، على الرغم من أنها كانت حقيقة ولكنها مائعة تنفلت بعيدا هذه الأشياء وهولاء الأشخاص وتملكنى فزع شديد ولم أجد أى وسيلة للمساعدة. سمعت أناس يتحدثون ولكنى لم اعرف معانى الكلمات وكانت الأصوات مثل المعادن الصلدة بدون أى لون أو أى نوع من الدفء.

هذه لم تكن هلاوس لان التحريف (التشوه) لم يحدث فى الإدراك نفسه ولكن فى التعبير والاستجابة لهذه المدركات. كانت رينيه مشتتة مثل الإنسان الذى يحيا فى عالم رباعى الأبعاد يمكنه أن يحرف نموذج ثلاثى الأبعاد ويقول لنا انظروا، أنا أرى ما ترون ولكنى أرى أكثر منه بكثير، وما ترون مجرد لمحة فقط. كانت استعارات رينيه مصنوعة من وجهة نظرها. انجراف بطئ من التداخل بين مستويات مختلفة من الحقيقة ولذلك فهى تتحدث تحت ضغط شديد لا تستطيع أن تقوله بالحقيقة الكاملة فى لغة لا تحتوى إلا على مستوى منفردا من الحقيقة.

منذ وقت كانت لا تستطيع أن تقول أنها لديها بصيرة عاملة على الإطلاق، فقد كانت لا تفعل أى شئ غير أن تجلس فى غرفة مظلمة لاسترجاع الذكريات وإعادة خلقهم واستخدام الاستعارات فيما تعنى لها هذه الذكريات. ويؤكد كتابها اعتقادى أن كل شيء جائز وممكن من خلال اللغة. فهى ذهبت فى عالم أخر أو بلد أخر كما أسمته هى وأحاطت الأشياء المختفية بالكلمات لكى تعرض لنا شكلها. وكانت تتحدث طول الوقت بصوت مباشر ولكنه خيالى أو متخيل بدون تطفل، ودائما ما كانت تستند الى عقل القارئ نفسه وقوته على فهم المعنى المستحيل الذى كانت تحاول التعبير عنه مباشرة.

ولقد ألهمتنى شجاعة رينيه، لأنها قد كتبت مذاكرتها أول ما تعافت، بطريقة ما رجعت بها ودخلت عالم كانت تخافه وتخشاه.

وبدت مخاوفى فى إعادة حالة من الفوضى والخوف والطفولة المضطربة بعدما رأيت مثالها، أما أنا فلم أواجه أبدا مخاوفى، ولكنها واجهت مخاوفها على الرغم من أنها مفزعة ولم استطع أنا أن أواجه مخاوفى على الرغم من بساطتها. خلال أربع سنوات ونصف حيث كانت عواصف عاتية وغير مستقرة تجتاحنى ترتفع من الثبات التام إلى الحركة الفجائية (وقتها لم أكن خاضعة للتحليل النفسى) وإعادة اكتشاف طفولتى، وكنت استحضر رينيه غالبا فى عقلى لمحاولة وصف مخاوفى مثل مسافر متوتر يحمل ميدالية فى يديه.

ولكن ربما فى النهاية فقد حركنى الكتاب لأنه كان دليلا واضحا على انتصار الإيمان، الإيمان بقدرة الكتاب على توصيل المشاعر.

على الرغم من العراقيل والصعوبات التى واجهتها رينية من مخاوفها واستحالة الاستعادة المباشرة والكاملة لحالات من العقل غير الواعى (المريض) وضرورة ترك لغة التحليل النفسى الصعبة وافتقادها لخبرة الكُتاب السردية، ولكنها رغم ذلك بدأت فى كتابة الكتاب (المذكرات) لتعطينا إحساس شفاف وواضح لمرض الفصام، وأنا وللأمانة قد شككت فى كل شىء قرأته.

ويعد كتاب سيرة ذاتية لفتاة فصامية وثيقة إنسانية ملهمة للآخرين بدون أدنى شك، ولكننى مهتم أكثر بهذا الكتاب على انه رحلة رائعة لقوة الكتابة النثرية الواقعية. وكانت رينيه متأكدة من قوة

حوله، ولكن تظل هناك ومضة خارجية تحارب وتناضل لتسمح له بملاحظة ما يجرى حوله وبملاحظة حالته المرضية أيضا. وغالبا ما يمنع القصور الذاتى الشديد القدرة على الاستجابة والكلام. وقد سمحت ملاحظة ما يمر به المريض بتعقب مراحل مرضه وربما عدها، وهذه الملاحظة ادت الى اكتشاف محتويات حياته: الصعوبات التى مر بها والمعاناة التى لا توصف والملذات المريرة، باختصار اكتشاف وجود غنى بالكثير من ردود الأفعال (و بالكثير من الإصرار على تغطية المظاهر الواضحة للمرض).

هذه المذكرات يجب أن تكون بدون أدنى شك تعليمات مفيدة لعلماء النفس كما أوضح فرويد Freudفى محاضرات فى التحليل النفسى، أن هولاء المرضى قد تحولوا بعيدا عن الحقيقة ولهذا السبب فهم اقدر منا على إدراك الحقيقة الداخلية ويمكنهم أن يكشفوا لنا أشياء لولاهم ما عرفنا بوجودها ولظلت مبهمة لنا.

ويرى البعض أن كتاب سيرة ذاتية لفتاة فصامية هو نيجاتيف (الصورة السلبية) لكتاب الإدراك الرمزى وموضح لما وراء علامات وأعراض الفصام وكما أن النيجاتيف ينقل الضوء والفراغ فانه يمكن مقارنة استبطان المريض بانطباع المعالج عن سلوك المريض. وهذا التشبيه المتقارب يعطينا معلومات تمنع التقدير الخاطئ للمريض ودرجة الاستنارة عنده. وفى بعض الأوقات قد يمنح المحتوى اللفظى انطباعا عاما عن الألم الشديد أكثر مما يوحى مظهره الخارجى والعكس

صحيح. ولعله من المدهش دائما أن تكتشف أن المريض الذى يبدو مجنون أو مهووس هو فى الحقيقة على دراية ووعى لما يحدث حوله. وهنا يظهر ميلا للوم المريض على أعراض مرضه على الرغم من قدرته فى التحكم فيها، ناسيا انه ليس مسئولا ولا حول له ولا قوة.

وهذا يعود بنا إلى الطبيعة الأصلية أو إلى حقيقة مرض الفصام التى تكون فى تفكك عميق ومضطرب يظهر فيه فقدان التواصل مع الحياة ولكن بالذكاء الباقى عند المريض يظل على صلة بها ويعمل ككاميرا متحركة تصور وتسجل كل ما يصل إلى عدستها.

وغنى عن القول أن رينيه بالكاد استطاعت أن تستجمع كل الانطباعات والمواقف التى حدثت لها خلال فترة مرضها. فى الحقيقة كانت هناك فترة طويلة تعانى فيها رينيه من الفصام الكتاتونى (حالات التخشب) حينما يكون اضطرابها سببا فى استحالة فهمها لما يحدث حولها أو حتى ما يحدث بداخلها، ولم تبقى لها أى انطباعات إدراكية فى الذاكرة خلال فترات من الهوس الشديد، وهذا هو السبب فى سرد الاستبطان الداخلى الذى يبدو انه كان شاهدا على شفافية مدهشة. ولا يجب أن ننسى أن هذه الاستبطانات تمثل فترات معينة من مرضها ولحسن الحظ أن ما تبقى بذاكرتها هو الأكثر تشويقا وإثارة من الناحية النفسية.

مارجريت سيتشهاي

Marguerite Sechehaye

١ - ظهور أول مشاعر الضلالات

I: Appearance of the First Feelings of Unrealit

(هذه هى قصة رينيه الذاتية كما ترويها هى باختصار بعد شفاءها. هنا تبدأ القصة بظهور أول مشاعر الضلالات واللاواقعية عندما كان عمرها خمس سنوات)

أتذكر هذا اليوم جيدا عندما بدأت مشاعر الضلالات هذة. كنا فى البلدة نمضى بعض الوقت وذهبت للتمشية هنا وهناك وفجأة عندما كنت أمر بجوار المدرسة سمعت الأطفال يغنون أغنية ألمانية فى حصة الموسيقى والغناء. توقفت لاستمع إلى الأغنية وشعرت بشعور غريب يجتاحنى شعور يصعب توضيحه ولكنه قريب لشىء ما سأعرفه جيدا فيما بعد، إحساس مضطرب من اللاواقعية. شعرت أنى لم اعد اعرف المدرسة والتى أصبحت كالمعسكرات الكبيرة للجنود وبدا لى الأطفال الذين يغنون كأنهم سجناء ارغموا على الغناء رغما عنهم. شعرت كأنما انفصلت المدرسة عن باقى العالم. فى نفس هذه اللحظة وقعت عينى على حقل من القمح لم يستطع بصرى أن يصل إلى نهايته. وقد ملئنى حقل القمح الأصفر الشاسع وصوت الأطفال المغنون خلف جدران المدرسة بالحزن جعلونى ابكى بكاء شديدا . ركضت إلى حديقتنا وبدأت العب كى تعود الأشياء إلى طبيعتها وان أعود إلى الواقع. كانت هذه أول مرة تظهر فيها هذه العناصر التى أصبحت موجودة باستمرار

ليصل إلى حد نوبة من الفزع والرعب واستيقظت وأنا اصرخ الإبرة، الإبرة!.

ما حدث أثناء لعبة نط الحبل كان مثل هذا الحلم أو الكابوس، كان شيئا من هذا القبيل: توتر وشيئا ما ينمو بعشوائية وقلق وجزع مستمر.

منذ هذا الوقت فصاعدا كان، وقت الفسحة فى المدرسة كان غالبا مصدر لمشاعر الضلالات. كنت التصق بالحائط كأننى مسجونة داخل أسوار المدرسة وأشاهد التلاميذ الآخرين يركضون ويصرخون فى فناء المدرسة. كانوا بالنسبة لى مجموعة من النمل يزحفون تحت الضوء الساطع. وفجأة أصبح مبنى المدرسة فسيحا جدا وأملس وغير حقيقى، وأصابتنى حالة من الكآبة لا توصف وتخيلت أن الناس الذين يشاهدونا فى الشارع يظنون أننا كلنا مسجونون تماما مثلما ظننت أننى مسجونة وأردت أن اهرب بشدة. أحيانا كنت أهز باب المدرسة الحديدى بشدة كأنه لا يوجد أى مخرج أخر للمدرسة. كنت مثل المجنونة التى تريد أن تعود إلى الواقع.

كان الشارع بالنسبة لى مفعم بالحياة وحقيقى وزاهى وبدا الناس أحياء وحقيقيين، بينما كل شىء فى حدود الفناء كان غير متناهى وغير حقيقى وميكانيكى وليس له أى معنى، كان تماما مثل كابوس الإبرة فى كومة القش. وكنت أجد نفسى فى هذه الحالة فقط عندما اكون فى الفناء ولا يحدث هذا أبدا أثناء الحصص. كنت أعانى منها

بشدة ولكننى لم أكن ادرى كيف أتحرر منها. اللعب والكلام والقراءة لم يكن شيئا منها قادرا على كسر دائرة الضلالات التى أحاطت بى.

بدأت هذه الأزمات تزداد يوما بعد يوم، وفى يوم ما بينما أنا فى مكتب مدير المدرسة فجأة تحولت الغرفة إلى شىء هائل فسيح يشع بضوء مخيف أزاح الظل من الغرفة بعيدا، كل شىء كان محدد وناعم وصناعى ومشدود للغاية. المقاعد والطاولات بدت كأنها نماذج مصغرة وضعت هنا وهناك. تحول التلاميذ والمعلمون إلى دمى تدور بدون أدنى سبب. لم استطع أن أدرك أى شىء أو أى شخص. كان الواقع يبدو واهن وكأنه ابتعد عن كل الأشياء والأشخاص. وأصابنى فزع عميق كأننى ضعت وتهت وبحثت عن المساعدة فى كل مكان حولى. وسمعت الناس يتحدثون ولكننى لم استطع أن افهم شيئا مما يقولون ولم أجد لكلماتهم أى معنى. واستحالت الأصوات إلى أصوات معدنية بدون أى دفأ أو لون يميزها وظلت تعيد نفسها مرارا وتكرارا فى راسى عبارة عن كلمات مبعثرة تتردد كأنها قطعت بسكين. وعندما تقدمت إحدى المعلمات نحوى أخذت تزداد حجما وتزداد مثل كومة القش.

ذهبت إلى معلمتى وقلت لها أنا خائفة لان كل شخص على رأسه راس غراب صغير. ابتسمت لى برقة وأجابتنى بشىء لا أتذكره. ولكن هذه الابتسامة لم تخفف من توترى ولكن بدلا من ذلك زادت من اضطرابى وحيرتى لأننى رايت أسنانها بيضاء ناصعة وتلمع مثل الضوء. وظلت هذه الأسنان على حالها حتى احتلت جميع رؤيتى كأنما

المرسوم أمامى فى كراسة الرسم، بالتالى أصبح لدى شعور بالزيف فى أى شىء افعله. فى حصة الجمباز واللياقة البدنية لم استطع فهم الأوامر وكنت اخطأ بين الشمال باليمين. وبالنسبة لحصة التطريز كان من المستحيل أن افهم تكنيك وضع القماش أو فهم أسرار غزل مجرد جوارب صغير. وبتنوع هذه المواد أصبحت لدى مشاكل أكثر وأكثر فى التعامل معها على الرغم من كل جهودى لمحاولة فهم هذه المواد لكننى فقدت الإحساس بالأشياء العملية.

وفى ظل هذه الظروف المضطربة عاودتنى ثانية مشاعر الضلالات. أحيانا فى وسط الحصة وكل شىء هادئ استمع إلى ضوضاء الشارع- عربة تمر والناس تتحدث أو صهيل الأحصنة- كلا منهم منفصل عن مصدره بلا أى معنى. بينما يصب التلاميذ الأخريين كل اهتمامهم على الواجبات المدرسية حتى أصبحوا كالآليين أو العرائس الخشبية يتحركون وفقا لميكانيزم غير مرئى والمعلم أيضا يتحدث ويرفع يده للكتابة مثل عفريت العلبة المخيف، وعادة ما كان يستمر لدى هذا الشعور تكسره فقط الأصوات الخارجية البعيدة أو حرارة الشمس التى تدفىء الفصل الثابت مثل الأموات. وكان يعترينى خوف شديد وأود ل اصرخ بأعلى صوتى.

أحيانا فى طريقى إلى المدرسة فى الصباح يحدث نفس الشىء، فجأة يصبح الشارع غير متناهى وناصع البياض تحت ضوء الشمس، يجرى الناس فيه مثل النمل وتلتف السيارات فى كل الاتجاهات بدون

أدنى سبب وعلى مسافة قريبة من هذا يدق جرس ثم يتوقف كل شيء وينتظر حابسا أنفاسه فى حالة من التوتر والاضطراب مثلما تقع الإبرة فى كومة من القش. يبدو أن شيء ما يحدث، شيء كارثى أو غير عادى. وتوقفنى قوة غير عادية من الفضول للتوقف والانتظار وبعدها وبدون أى تغير أعود لأدرك حركة الناس والأشياء وأكمل طريقى ذاهبة إلى المدرسة.

ولحسن حظى أصبت بالتهاب رئوى وكان يجب أن اترك المدرسة فى الحال واذهب إلى مصحة فى الجبل. وهناك بعد عدة أيام قليلة من الفضول نتيجة تغيير المكان، قدمت تعديل للخروج بسبب رتابة وثبات الحياة هناك.

قلت حدة أزمة الضلالات بنسبة ملحوظة ليحل محلها حالة من تمجيد الطبيعة. كنت بمفردى فى غرفة صغيرة، وكان الاستماع إلى رياح الخريف وهى تهدر خلال الغابات من اسعد أوقاتى هناك. ولكن صوت صراخ وأنين الغابة كان يثير بداخلى نوع من عدم الارتياح ويفسد فرحتى بأصوات رياح الخريف. كنت اشعر أن الرياح تهب من القطب الشمالى مسافرة فوق منحدرات سيبريا الثلجية تصرخ وتحتج بين الغابات. كنت اشعر أنها كائن حى متوحش يطوى كل شيء فى طريقه. ومن ثم أصبحت غرفتى شاسعة الاتساع وغير متناسقة: الحوائط ملساء ولامعة والضوء الكهربى يغمر كل شيء بلمعانه الذى يعمى الأبصار. كانت الرياح العنيفة بالخارج تحرك الستائر بشدة

المغناطيسى ولكنى لم أكن أريد أن افقد السيطرة على عقلى وشخصيتى وقاومت هذه الفكرة بشدة مفضلة احتمال الخوف وأزمات الضلالات. ظاهريا وبالرغم من أن احدا لم يشك فى هذا الاضطراب أو الخوف ظن الناس أنى أعانى من الهسترية أو الجنون. حقيقة دائما ما كنت أصاب بحالات من الهياج فاضحك ملء فمى واقفز وأثير ضجة عارمة ولكن كل هذه الأعراض لم تكن لفتاة غير قادرة على التحكم فى نفسها ولكنها كانت محاولة للسيطرة على هذا الخوف الذى يجعلنى أتهيج واقلق وانتظر وقوع المصائب قريبا. وسعيت إلى تشتيت ذهنى بالألعاب والكلام ولكن ما يلبث أن يعود الخوف إلى مرة ثانية أكثر شدة وضراوة. وأصبحت المساعدة التى انتظرها من أصدقائى بلا جدوى أو نفع. وبعدها حاولت أن اهرب من الخوف إلى الاستثارة وصرخت وضحكت هروبا من هذا الخوف وردعا له.

شيئا فشيئا أخبرت أصدقائى أن هذا العالم سينفجر وينتهى ويمحونا من الوجود. على الرغم من إننى قلت هذه الترهات كثيرا بشىء من الاستهزاء والسخرية الا اننى كنت مقتنعة بها تمام الاقتناع ولكى اشعر بالمؤانسة أردت ان أشرك الآخرين فى هذه المخاوف، ورغم أنى لم اصدق أن العالم سينهار كما أنى اصدق الحقائق العلمية. وكان من الجلى أن لدى بعض الشكوك من أن هذا الاعتقاد مرتبط بمخاوفى الشخصية وان هذا الاعتقاد هو شخصى وغير عام.

ومرت السنة وأنا أعانى الخوف والضلالات، ماعدا فى بعض

فترات من الهوس والهلاوس كنت أعود لنفسى وطبيعيتى ثانية، وكان الأطفال فى المصحة يحبوننى كثيرا ويعاملونى كأننى أمهم الصغيرة. كنت أقرأ لهم الخطابات التى تصلهم واكتب لهم البعض الأخر.

عدت إلى الوادى صحيحة جسديا ولكن فى حالة نفسية مزرية، وكان على أن أحارب الخوف الذى يعترينى دوما ويسرق منى سعادتى، بالإضافة إلى صعوبة التعامل مع العائلة أو المدرسة.

كنت طالبة جيدة ولكن ظل الرسم والرسم والغناء مواد صعبة بالنسبة لى. وباختصار لم تؤتى جهودى نفعا. ولقد حاولت أن افهم الإيقاع أو وضع الغرز وفقدت تماما القدرة على أداء هذه الأشياء.

مرت سنتان بعد التحليل النفسى كانت مملوءتان بالصراع والإجهاد النفسى المستمر. وكان تحت هذه الفتاة الجدية العاملة والمسئولة- أنا كنت مسئولة عن بيت به ست أشخاص بميزانية ضئيلة وعلمت أخوتى وأخواتى وكنت طالبة ممتازة- شعرت بحيرة أكثر وأكثر والخوف بحادثته القديمة (عن انهيار العالم) لم يتركنى أبدا. كل يوم كنت متأكدة منه وأصبحت الضلالات أكثر. حتى وقت قريب كانت الضلالات تتدخل بالأشياء ولكن مع الأشخاص كنت أستطيع أن أتغلب عليها.

منذ العودة من المصحة والضلالات تزحف نحو الأشخاص الذين اعرفهم وأصدقائى وكانت هذه مأساة جديدة بالنسبة لى. كانت

الآن لابد أن أتغلب على هذه الضلالات بأى ثمن وبأى وسيلة، للحظة اشعر أن هناك شخصا حى بجوارى واشعر بالتواصل البشرى بين الأحياء وهذه اللحظة تجعلنى أنسى الوحدة طوال اليوم. كنت اتكأ على ذراع صديقتى وارجوها أن تبقى بعض دقائق أخرى، وعندما توافق كنت أتحدث واسأل الأسئلة والتى هى الشىء الوحيد الذى يكسر الحدود بيننا، ولكن يمر الوقت ولا أجد ما أقول، لذا اصطحبها إلى أول الطريق وكلى أمل فى انتظار معجزة تعيد الحياة والإدراك والوعى إلى حياتى. كنت انظر إليها وأتفحصها وادع وان اشعر بالحياة فى داخلها من خلال هذا الواقع المزيف والضلالات التى تغلفها. ولكنها كانت تبدو أكثر مثل التمثال، إنسان يتحرك بإلية ويتحدث مثل الإنسان الآلى. وكان هذا بالنسبة لى شىء فظيع ولا إنسانى ومخيف. وأودعها وأنا منهزمة وأعود متعبة وحزينة جدا، احمل قلب فارغ واصل إلى البيت، وهناك أجد بيتا كرتونيا، أخوة وأخوات أليين وضوء كهربى واغرق فى كابوس الإبرة فى كومة القش. ووسط هذه الهالة من الأحزان اعد الغداء وأساعد الأطفال فى واجبتهم المدرسية وأقوم بواجباتى أيضا.

فى بعض الأوقات بفضل هذه الأعمال الروتينية المألوفة ودفء ومذاق الطعام كنت استرجع هذا الواقع المفقود. وكنت افرح فرحة عارمة بإحساسى أننى بخير وأننى اشعر بهذا العالم من حولى. ولم اعد ارغب فى النوم بسبب هذا الإحساس الرائع.

٣- ريكيت

III: Riquette

(رينيه التى لم تهتم أبدا بالدمى، فجأة فى عمر السابعة عشر أو الثامنة عشر بدأت تلعب بهم مثل طفلة صغيرة وهذا يوضح النكوص بالنسبة لتطور المرض. ولكن ماذا ترمز الدمية لرينيه؟ هذا ما تقوله هى)

عندما كنت فى المصحة (وقتها كان عمرى خمسة عشر عام وستة اشهر) بالخطأ أعطونى هدية عروسة كبيرة وجميلة كهدية لرأس السنة، ولأننى كنت اشعر بإحباط قررت أن أرسلها لإحدى أخواتى الصغار ولكنى لم أجد صندوق يكفى حجمها. لذا فقد وضعتها فى عنبر نوم الأطفال بجوار النافذة. وعلى الرغم من عدم اهتمامى بهذه الدمية مطلقا ولكن عندما تفتح النافذة- كنا وقتها فى منتصف فصل الشتاء- كنت اشعر بالذنب وعدم الراحة لأن الدمية غير مغطاة. كنت اشعر بالذنب من هذا الإحساس ولكى لا اشعر أننى مجبرة على تغطيتها فكنت أدير وجهى كلما دخلت هذا العنبر.

بعد فترة قصيرة من عودتى إلى الوادى بدأت اشغل نفسى مع دميتى ريكيت. وكانت هذه فترة عصيبة ولم استطع خلالها التكيف مع الحياة ومسئوليات البيت والمدرسة، واشتقت للعودة إلى المصحة حيث

بالنسبة لى كانت ريكيت ترمز للسعادة المثالية لأى طفل: أن تكون فى درجة حرارة مناسبة وان توضع فى أكثر الأماكن راحة واسترخاء التى تناسب جسمها. لكم أحببت أن أضعها فى وضع الجلوس ولكن هذا كان يجعل رجليها مثنيتان وكان من المستحيل أن افعل بها هذا وكان حبى لها كله مركزا فى الجانب الجسمى الجيد ولا شىء غيره.

٤- توجهي للتحليل النفسي وعثوري علي (ماما)

IV: I Go into Psychoanalysis and Find a Mama

أمضيت أول عامين من التحليل فى مجابهة الخوف والإضاءة (التنوير) . وكانت معركة ملحمية، وكنت الطرف الضعيف والعاجز فى مواجهة ما أسميته ارض الضوء

فى أثناء أول هجمات الخوف والضلالات الشديدة كنت أتفوه بهذه الكلمات اللاواعية والصادمةأنا أفضل أن أكون مجنونة لأتجنب هذا الخوف المستمر ولكن هيهات. لم أكن اعرف ما اقول. وقد اقتنعت أن جهلى هو الذى جعل الجنون حالة من عدم الاتزان واللاعقلانية. حيث لا يوجد الم أو معاناة ولا حتى فرح، ولكن بلا مسئولية أيضا ولكن الاهم من هذا لم أكن أتخيل أبدا معنى أن يفقد الإنسان التعقلوأنا ألان فى منتصف فترة الصراع المستميت حتى لا انزلق أو ادخل إلى الضوء الكهربى الساطع.

مع بداية السنة الأولى من التحليل النفسى أدركت الخطر الذى يلم بى، لم يكن الجنون أبدا ولم يكن مجرد حالة مرضية. لم أكن اصدق حقا إننى مريضة وإنما كانت حالتى تشبه وجودى فى دولة منعزلة بعيدة عن الواقع حيث يتوج الضوء الساطع ملكا على عرشها ولا يترك مكانا للظل، وفضاء فسيح بلا أى حدود، بلدة قمرية ومعدنية

الواقعية كانت سرعان ما ستؤخذ منى. بالتأكيد فقد رأيت وجه ماما باردا كأنه قطعة ورق مقوى وغير حقيقى. وعلى الرغم من حالة الهياج الشديد واحتياجى لأن اشعر بها حقيقة، أن أتحدث وأتواصل معها -وأصبح التواصل الوحيد معى أنا نفسى- ورأيتها شيئا فشيئا تصبح جزء من حالة التنوير والإضاءة الشديدة. بعد ذلك قلت لها أنت تتنكرين لتعاقبينى. فى بعض الأوقات متأثرة بتجاهلها لى وبفضل عواطفها بخاصة عندما تقربنى منها- وعندما قالت: لكن ماما دائما مثلما هى، وهى اقوى من هذه الإضاءة، انظرى كيف تمسك بك جيدا بعدها أدركت أنها هى وقد عادت لطبيعتها مرة ثانية، عادت لتكون ملجئى وحياتى وواقعى والواحة الغالية من الواقعية فى صحراء عالمى الملىء بالأوهام.

٥- دخولي المنظومة

V: I Enter the System

بعد فترة قصيرة من بداية التحليل النفسى عرفت أن خوفى المرضى كان غطاء لشعورى بالذنب، ذنب فظيع. خلال الجلسات الأولى كانت كراهية الذات والعدائية الشديدة التى أضمرها لكل إنسان تزداد كثيرا. لقد كرهت الناس حرفيا بدون معرفة السبب. كنت أرى فى أحلامى وغالبا فى أحلام اليقظة أننى اخترع آلة كهربية لتفجير الأرض وكل من عليها، ولكن كان السوء أن هذه الآلة تسرق عقول كل الرجال وبالتالى تخلف مجموعة من الآليين الذين يطيعون أوامرى وإرادتى وحدى. وكان هذا انتقامى الأعظم والأكثر بشاعة.

بعد ذلك الوقت عندما اعتبرت هذه الأحلام عادية لم اعد اشعر بالذنب، ولم يعد لهذا الشعور وجود فعلى. كان هذا الشعور عام وشامل جدا بحيث لا يمكن وصفة بأى شيء مثله وكان يلزمه العقاب. وبالطبع كان هذا العقاب مرعب وعدوانى، وكان يتكون من الشعور بالذنب بنسبة كبيرة. بالنسبة لأى شخص فان الشعور بالذنب أسوأ ما يمكن أن يحدث له وهو اشد أنواع العقاب. وبالتالى لم اشعر بالراحة منه وكأننى كانت تتم معاقبتى بالفعل. وبالعكس كنت اشعر بالمزيد والمزيد من الإحساس بالذنب الذى لا يقاس بحد معين. وكنت أسعى بشكل دائم

لمعرفة من الذى يعاقبنى بهذه القسوة وما الذى يجعلنى مذنبة لهذه الدرجة.

فى يوم من الأيام كتبت خطاب توسل لمسبب معاناتى المجهول، لهذا المضطهد، اسأله عما فعلته من سوء وشر لعلى اعرف ما سبب هذا العذاب. ولكنى لم اعرف إلى أين أرسله فمزقته.

بعد فترة من الوقت عرفت أن هذا المضطهد لم يكن إلا هذه الآلة الكهربية، وهذه الآلة هى النظام. نعم النظام هو الذى يعاقبنى. كنت أفكر فيه على انه كيان لشبه عالم فسيح يحاصر جميع الرجال، فى أعلاه يوجد هؤلاء الذين يعطون الأوامر والذين يوقعون العقاب ويحكمون على الآخرين بالإدانة. وحيث أن كل فرد منهم مسئول عن الآخرين، فان كل تصرف من تصرفاته له انعكاس على الرجال الآخرين. ارتبط كل الرجال بمسئولية مريعة تحت سلطة الإدانة، كل واحد منهم كان جزء من النظام ولكن بعضهم فقط يدرك انه جزء من هذا النظام.

لقد كان المتنورين أو المتبصرين بحقيقة الأمور مثلى يعيشون بنعمة ونقمة الوعى. ولكن هؤلاء الذين لم يكونوا جزء من هذا الوعى- على الرغم من كونهم جزء منه بالفعل- ولكنهم لم يكونوا على وعى بهذا النظام ونتيجة لهذا فلم يشعروا بأى ذنب على الإطلاق وكنت احسدهم بشدة على هذه النعمة.

في هذه اللحظة أقفلت الحلقة: ارض النور كانت هي تماما النظام. لهذا السبب عندما تدخل هذه الأرض يكون محتم عليك أن تصبح غير عاقل وغير مدرك لكل شيء حولك ماعدا الإدانة، والنظام وحده يتمتع بحق الإدانة. وقد كنت مدانة ومذنبة بشكل لا يحتمل من غير سبب أو دافع واضح. وكان من الممكن فرض أقسى عقوبة علي- ولكنها لم تكن لتخفف عني حمل الشعور بالذنب. لأنني كما قلت أن أقسى عقوبة تجعلني اشعر بأنني مذنبة في نظر العالم إلى الأبد.

لم أكن اشعر بالتحسن إلا في الوقت الذي أكون فيه بجوار ماما المحللة النفسية. ولكن حتى في هذا الوقت كانت تمر ساعة أو ساعة وعشرون دقيقة قبل أن أستطيع التواصل معها. كنت أقف كما لو إنني متجمدة وكنت أرى كل شيء الحجرة والأثاث وحتى ماما نفسها وكل شيء كأنه منفصل وبعيد عن بعضه البعض وبارد ولا توجد أي روح فيه وغير إنساني وشرير ولا يوجد فيه أي شيء يدل على الحياة. بعد ذلك كنت أحاول ربط ما حدث منذ أخر جلسة وكنت ابدأ في سرده. الا ان نبرة صوتي ومعاني الكلمات كانت تبدو غريبة. وكنت اسمع بين الحين والأخر صوتا داخليا يقاطعني مستهزأ وساخرا قائلا أه، أه! ويردد كلماتي بسخرية.

هذه الأصوات الداخلية كان لها نفس وقع الإحساس في كابوس الإبرة في كومة القش. وكانت مؤلمة وساخرة، وتردد كلماتي أه، أه ! ثم قالت المعلمة، قالت، قالت وتزيد من تكرار كلمة قالت، قالت.

وحاولت بكل قوتى أن اكبتها ولا أعيرها أى انتباه، ولكنها لم تكن تطيعنى. وظل التكرار الساخر يعيد نفسه مرارا وتكرارا، حتى أصبحت الانطباعات الذهنية مرتبطة بالكلمات. على سبيل المثال إذا أردت تذكر ما قاله المدرس الألمانى أو ما فعلته أختى الصغيرة حتى لا تذهب إلى المدرسة، فكنت أرى المدرس يشير على مكتبه مثل الدمية بعيدا عن أى شيء أخر منفردا بذاته يغمره ضوء يخطف الأبصار ويلوح بيديه مثل المجنون. وكنت أرى أختى الصغيرة تتدحرج على ارض المطبخ بغضب عارم ولكنها هى الأخرى تحولت بطريقة إلية بدون أى سبب أو هدف واضح.

كنت أرى الناس وهم يتصرفون بطريقة طبيعية فى حياتهم يتحولون إلى كائنات مفرغة وقد فقدوا أرواحهم وقد تركتهم أجسامهم يتحركون مثل الآلات الاتوماتيكية وتجردوا تماما من المشاعر والإحساس. كان هذا الإحساس فظيع، ولكى أتخلص من هذه الأصوات والصور كنت انظر إلى ماما. ولكنى كنت أرى تمثالا من الثلج يبتسم لى. وعندما تظهر أسنانها وهى تبتسم لى كنت اشعر برعب أكثر وأكثر لأننى كنت أرى كل جزء من وجهها ينفصل بذاته عن باقى الوجه: الأسنان ثم الأنف فالخد ثم عين تتلوها الأخرى. ربما كان هذا استقلال كل جزء يصيبه هذا الخوف ويمنعنى من التعرف عليها على الرغم من إننى اعلم تماما من هى.

أما فى باقى الغرفة فقد ساد الصمت، كل شيء هناك تسمر فى

مكانه وتجمد بغباء. وازداد الرعب والخوف حتى اختبأت عند كتف ماما وتذرعت بذراعها كي اشعر بدفئها وأذوب فى عطر ملابسها، وأغمضت عينى وأخذت ابكى قائلة لها أنا خائفة، أنا خائفة، القشة هناك وأنت غير موجودة معى، ساعدينى ساعدينى النظام سيقبض على، والفيضان يعلو وسأغرق، أنا ارتجف من هذه البرودة، أنا اغرق فى هذه البرودة. أه كم أنا خائفة، لماذا تغيرتى، لماذا تحولتى إلى تمثال وتركتى النظام يعطيكى الأوامر، أه: لماذا؟.

والتصقت بها وتشبثت بملابسها بكل قوتى. وأردت أن اتخذها ملجئى وان اختبأ فى قلبها لكى اهرب من معاناتى الشديدة.

فى كل هذا الوقت كنت اسمع هذا الصوت الساخر يردد جمل وكلمات غير مفهومة مثل وسوف نرى أو معركة طرف الغار أو نعم معلمتى.

بعد ذلك سمعت صوت ماما الجميل يقول لى رينيه الصغيرة، صغيرتى رينيه ليست وحدها الآن. ماما هنا معها لتعتنى بها. ماما أقوى من أى شىء أخر وأقوى من هذه الإضاءة. ماما ستخرج رينيه من الماء وسوف نقاوم معا وننجح. انظرى كم ماما قوية وتعرف كيف تحمى رينيه ولا داعى للخوف من أى شىء. ومرت بيدها الرقيقة فوق رأسى وقبلت جبينى. وبدأت لمستها لشعرى وصوتها وحمايتها لى تضفى سحرها على وتمحى عنى الخوف.

أخذت هذه الأصوات الداخلية تختفى شيئا فشيئا واختفت معها

الضلالات الموجودة فى الغرفة وأغمضت عينى. كان استخدامها لصيغة الغائب عن نفسها فى كلامها معى يشعرنى براحة غريبة. كانت دائما تستخدم ماما ورينيه وليس أنا وأنت . ولكن عندما تستخدم صيغة المتكلم يتحول كل شىء فجأة ولا أستطيع التعرف عليها وكنت اغضب بشدة وكان هذا الخطأ يقطع التواصل بينى وبينها. لذلك عندما تقول أنت سوف ترين كيف نستطيع أنا وأنت هزيمة هذا النظام. لم تكن أنا أو أنت لها أى معنى حقيقى بالنسبة لى. رينيه وماما فقط كانتا تحتويان على الحياة والواقع.

لم أكن اعرف كيف أفسر لماما كل ما يحدث معى. ولكنى كنت متأكدة من أنها تفهم كل شىء لذلك كنت اشتكى لها من كل الخبرات المزعجة باستخدام هذه الكلمات أنا خائفة أو القش يزداد وينتشر أو أنت تتنكرين لتصبحى مثل الثلج أو الجو شديد البرودة. وكانت ماما تتكهن بمدى الرعب الذى اشعر به.

أحيانا كنت اخبرها أن الكلمات تخدعنى وتهزأ منى، وبدأت ماما تطاردهم قائلة يجب أن تسمع رينيه صوت ماما فقط لأنه يحب رينيه. بعدها كنت اسمع هذا الصوت الرائع الذى يشبه التعويذة التى تعطينى لحظة من الوجود فى الواقع والتواصل مع الحياة. شعرت بالارتياح ولكنى كنت متعبة من الصراع والقلق وبدأت أتحدث عن ما استوعبته وكنت مهتمة بما فية من أحداث ولكن للأسف كان وقت الجلسة انتهى.

كنت اشعر بالدفء والشجاعة وأنا اردد كلمات ماما فى طريقى

إلى المنزل. ولمرة أخرى رأيت هذا المشهد الكرتونى للضلالات، ومع ذلك لم أعانى منه مثل ما عانيت منه فى بداية الجلسة. وكنت لاازال احتفظ بقليل من دفء كلمات ماما التى سكنت قلبى. خاصة أننى لم اعد أتصارع لكسر حاجز الضلالات، ولكنى استسلمت لهذا الإدراك العجيب من غير محاولة منى لتغييره. ورأيت الناس والأشياء فى طريقى ولكنى لم اشعر أننى أريد التواصل معهم مثلما أريد التواصل مع ماما.

كنت سعيدة جدا لان ماما غيرت من طريقتها فى العلاج فى نهاية السنة الأولى. فى بداية الجلسات كانت تحلل كل كلمة وكل شعور بالذنب. وهذا التحليل كان يبدو مثل مشروع قانون الشكاوى، تماما مثل البحث عن سبب لهذه المشاعر لتصبح أكثر واقعية. كأنما تقول عرفى المواقف التى تشعرين فيها بالذنب، وعللى لماذا؟. وكان هذا دليل اكبر على وجود الذنب وان النظام موجود بالفعل حيث يجد دائما مبرر لأفعاله. كنت أعود من هذه الجلسات حزينة ومنعزلة فى عالم من الضلالات وألوم نفسى دائما ولا أتواصل مع أى شخص أو أى شىء.

ولكن بعد أن جلست ماما بجوارى وتكلمت معى بصيغة الغائب وأصبحت تفهمنى أكثر مما تبحث عن الأسباب وتحللها، شعرت بفرحة عارمة. كانت هى وحدها تستطيع كسر هذا الحاجز من الضلالات الذى يطوقنى. ماما وحدها كانت تستطيع أن تجعلنى أتواصل مع الحياة.

٦- المنظومة تعطيني أوامر والروح تدب في الجمادات

VI: The System Gives Me Orders and Things Begin To Come To Life

أخيرا وصلت الضلالات لهذه النقطة من التقدم حيث أصبحت ماما نفسها لا تستطيع التواصل معى. ولفترة من الوقت بدأت اشكى بشدة من أن الأشياء تخدعنى وتهزا منى وبدأت أعانى منها.

وللحقيقة فان هذه الأشياء لم تكن تفعل أى شىء غريب، لم يتكلموا أو يهاجمونى مباشرة، ولكن مجرد وجودهم هو ما يجعلنى أتذمر واشتكى. كنت أرى الأشياء ناعمة مثل المعادن مقطعة ومشطورة ومنفصلة عن بعضها البعض ومتوهجة بشدة وهذا ما كان يبعث فى نفسى الرعب. عندما كنت انظر إلى كرسى آو برطمان، لم أكن أفكر فى استخداماتهم- لم يكن البرطمان مجرد إناء يحتوى على لبن أو ماء ولم يكن الكرسى مَجرد شىء لنجلس عليه- ولكنهم فقدوا أسمائهم ومعانيهم ووظائفهم وأصبحوا أشياء ودبت فيهم الحياة وأصبح لهم وجود ملموس.

وكان هذا الوجود سبب كبير فى مخاوفى. وفى هذا المشهد اللاواقعى، فى وسط إدراكى المظلم الهادئ فجأة ينبت الشىء من اللاشىء. كانت المزهرية المزينة بالورد الأزرق تقف تواجهنى

وتتحدانى بحضورها ووجودها، ولكى أتغلب على مخاوفى كنت انظر فى أى اتجاه أخر. والتقت عينى بكرسى ثم طاولة ولكنهم كانوا أحياء أيضا ويؤكدون وجودهم ووجود الروح فيهم. حاولت أن اهرب من قبضتهم على فأسميت كل شىء باسمه وقلت كرسى، إبريق، طاولة، هذا كرسى. ولكنى كنت اسمع صدى مفرغ للكلمات لا يحمل أى معنى. من ناحية كانت الأشياء حية وساخرة، ومن ناحية أخرى فقد فقدت الأسماء معناها وأصبح محتواها فارغ. لم أكن أستطيع أن اجمع الناحيتين معا ولكنى كنت أقف متجمدة أمام الأشياء يملئنى الخوف والعجز.

وعندما اعترضت قائلة الأشياء تخدعنى، أنا خائفة وبدا الناس يسألونى بماذا اشعر بالضبط، هل ترين الكرسى أو المزهرية أحياء؟ كنت أجيب نعم أنهم أحياء. وظن الأطباء أننى أرى هذه الأشياء وكأنها أدمية واسمعها تتحدث. ولكن هذه لم تكن حالتى. كانت الحياة بهم تتمثل بشكل فريد فى كونهم موجودين.

ولكى اهرب منهم كنت اخبأ رأسى بين يدى أو اقف منزوية فى احد الأركان. كان كل شىء يبدو حى ويهزمنى. كنت أرى الناس فى الشارع يتجولون مثل المجانين يتحركون بدون أى سبب يتصادمون مع بعضهم البعض ومع الأشياء أيضا التى أصبحت أكثر واقعية منهم.

وفى نفس الوقت تلقيت الأوامر من النظام. لم أكن اسمع صوت

الأوامر، ولكنها كانت أوامر تعسفية كأنما قيلت بصوت عالى. بينما على سبيل المثال كنت احضر تقريرا كى اكتبه، فجأة وبدون أى تحذير، تأمرنى قوة غريبة بحرق يدى اليمنى أو المبنى الذى كنت فيه. قاومت هذا الأمر بكل قوتى. اتصلت بماما وأخبرتها بهذا الأمر، ودفعنى صوتها كى استمع إليها ولا أنفذ أوامر النظام. ولكن عندما يصبح النظام متطلب بشدة كنت اهرب إليها. وكان هذا الهروب إلى ماما يعطينى طمأنينة نسبية ولكن لسوء حظى لم تدم إلا لحظات قليلة.

وكان يعتصر قلبى عذاب شديد، عذاب لا يمكن أن تخف حدته. إذا لم أنفذ الأمر كنت اشعر بالذنب وأننى جبانة ولا أستطيع المواجهة. وكان عذابى يتزايد، ثم يعاودنى الأمر مجددا وبطريقة أقسى واشد. وإذا استسلمت فى النهاية واتجهت ناحية النار ومددت يدى لأحرقها، كان يجتاحنى شعور شديد بالذنب كأننى افعل شىء فظيع ويتزايد قلقى أكثر. يجب أن اقاوم لأنه على الرغم من أن البديل الأخير أثار اضطراب كبير بداخلى، لأننى شعرت أن إطاعة وتنفيذ الأوامر ستسبب فى شرخ عميق مدمرا لشخصيتى لا يمكن إصلاحه. ولكن فى الحالتين كانت الطاعة أو الرفض تبدو وكأنها شىء مصطنع ومسرحى. فى هذه الأثناء كنت وحيدة تماما ولا يعلم احد بمعاناتى وهذه الحرب التى أخوضها إلا ماما.

كان لدى أيضا الاعتقاد أن سلوكى مخادع. كنت صادقة تماما فى شعورى ولكن إذا عصيت النظام لكى احصل على تكامل شخصيتى

وقتها سأصبح خائنة عندما لا ادع أى اعتبار لهذا الأمر. وإذا أطعته كنت اشعر بالخيانة بالمثل عندما أقوم بحرق يدى. كنت أعانى بشدة من هذا الأمر المتسلط ومن شعورى بالخيانة الذى يتناقض تماما مع شخصيتى.

عندما كنت أحارب بكل قوتى لكى لا اترك نفسى تغرق فى الإنارة (ارض الضوء). كنت أرى الأشياء تهزأ منى من مكانها وتعنفنى باستمرار. وقفزت إلى رأسى جمل سخيفة تترد هنا وهناك من غير توقف. كنت أغمض عينى لأهرب من هذا الاضطراب الذى يحيط بى والذى كنت أنا مركزه. لم استطع الحصول على أى قسط من الراحة لان هذه الصور المرعبة تهاجمنى وكانت واضحة تماما لدرجة أننى رأيتها فعلا. لا أستطيع القول أننى رأيت هذه الصور يقينا وهى لم تكن تمثل شيئا، وحتى أننى لم اشعر بها. كنت أحس أن فمى ملىء بالطيور التى مضغتها بأسنانى وكنت اشعر بريشهم ودمائهم وعظامهم المهشمة مثل الغصة فى حلقى، وكنت أرى الموتى فى عبوات اللبن يتعفنون وكنت اشرب هذا اللبن الممزوج بجيفتهم، آو أننى كنت التهم رأس القطة التى عضتنى من قبل. وكان هذا الإحساس لا يحتمل إطلاقا.

ووسط هذا الرعب والضجيج من حولى. كنت أكمل عملى كسكرتيرة ولكن بصعوبة بالغة. إضافة إلى هذا العذاب والضجيج بدأ الصراخ المستمر يهشم رأسى. ووجود كل هذا الغير المتوقع جعلنى أتألم

بشدة. وعلى الرغم من هذا الألم فأننى لم اسمعهم كما لم اسمع الصراخ والصيحات الحقيقية التى تصدر من الناس حولى. وتواكب الضوضاء والصراخ مع الجانب الأيمن من رأسى مما جعلنى أسد (أصم) أذنى كى لا استمع إليهم. ولكنى كنت أميز هذا الضوضاء عن تلك التى توجد فى الواقع، كنت اسمعها من غير أن اسمعها حقيقية وأدركت أنهما نابعين من داخلى.

كنت اعلم هذه الحقيقة تماما، كنت اترك نفسى للنظام يسيطر على واغرق فى ارض الضوء أو ارض الأوامر كما كنت اسميها أنا.

كانت لحظات الراحة عندى هى وقت جلسات التحليل النفسى، خاصة مع نهاية الساعة الأولى عندما أستطيع التواصل مع ماما. كنت التمس فيها حمايتى من مخالب الإنارة وكرتونية الأشياء فى حياتى.

وعلى الرغم من حسن نواياها، فلم تكن تملك أى قوة لمواجهة النظام ولكنها تستطيع أن تقاومه. وكنت الجأ إليها عندما اشعر بالخطر وكان هذا فى حد ذاته نصرا ملحوظا.

وفى النهاية حدثت المأساة(*). أصبحت الأوامر أكثر تعسفا وأكثر إلحاحا: لابد أن احرق يدى اليمنى لأنها هى يد القانون.

(*) المأساة هى عندما أصبحت المحللة النفسية على صلة قريبة بالطبيب النفسى الذى كان يتابع حالة رينيه دوريا. ونظرا لمعارضة والدتها لم يستطع الطبيب أن يدخلها للعلاج فى المستشفى من غير استخدام صدمة نفسية.

وحـدث تداخل هائل ومـخـيف فى النظام. بدون أن اعلم كنت أصدر أوامر بمعاقبة الناس وبالتالى عوقبت أنا أيضا. وكان هؤلاء الذين أعاقبهم لديهم الحق فى أن يعاقبوا أيضا ولكن كل عقاب كانوا يتلقوه كان يتكبده واحد فقط منهم. عندما فهمت ميكانيزم عقوبات النظام التى أحاطتنى قلت مقاومتى بشكل كبير ضد الأوامر.

ذات يوم كنت ارتعد خوفا عندما وضعت ظهر يدى اليمنى فوق المدفأة وتركتـها لفترة كافية بقدر الإمكان بالتفكير فى واجبى تجاه إطاعة أوامر النظام وانه سوف يتوقف عن أوامره وأستطيع أن أواجه الألم. فى هذه اللحظة جاء رئيس المكتب بشكل غير متوقع فسحبت يدى بسرعة وشعرت بارتياح لاعتقادى أنه لم يرانى. ولكنى كنت مخطئة. لقد لاحظ الأمر وفهمه بدون أدنى شك لأنه اخطر طبيب مجلس الإشراف على المرضى العقليين الذى هو طبيبى الخاص.

وبإدراك نواياهم فى إدخالى المستشفى بعد الاستشارة، تكلمت عن الأشياء التى تسخر منى والنظام الذى يحيط بى، حيث أصبحت هذه الأشياء جزء منى. ولكننى ظللت صامتة بشأن حرق يدى وبشأن الأوامر التى كنت اتلقاها لأننى لم أكن على أى توافق معها. وعلى الرغم من هذا كان ما يعلموه سبب كافى لإدخالى المستشفى وعلاجى هناك خوفا من دخولى رسميا إلى مصحة عقلية.

٧- بدأت العلاج داخل المنظومة وخاطرت بفقد (ماما)

VII: I Am Hospitalized; the System Persist and I Risk Losing Mama

كانت ضرورة دخولى مستشفى الأمراض العقلية تسبب التوتر الشديد لى. وكنت ممتنة لعدم دخولى المستشفى بالقوة مثلما يحدث ببساطة فى مثل هذه الحالات المرضية. وفى هذا الوقت حدث شىء استثنائى، شىء فريد من نوعه.

منذ بداية الوقت الذى هاجمتنى فيه أوامر النظام وأنا اشعر بخوف دائم من دخولى كلية إلى ارض الضوء. كان معنى هذا نظريا أن أبقى إلى الأبد فى عالم الضلالات من غير أى تواصل مع ماما، وعمليا كان معناه إدخالى إلى مستشفى الأمراض العقلية. كنت افهم تماما العلاقة بين ارض الضوء وحالة الجنون. بالنسبة لى كان المرضى العقليين هم المتنورين وكان دخولى إلى مؤسسة نفسية معناه أن أصبح متنورة تماما مثلهم. وغالبا ما كنت أقول لماما أنا خائفة، أنهم قادمون ليأخذونى ويضعونى مع الأفراد المتنورين.

بعد عشرة أيام من زيارة طبيب مجلس الرقابة الطبية جاءت إلى منزلى ممرضة وعاملة اجتماعية أو شرطية فى تاكسى ليأخذونى رسميا. ولحسن الحظ كنت خارج المنزل فى هذا الوقت، ولا تعلم

عائلتى أين أنا. كان هذا يوم السبت عصرا فى حوالى السادسة مساءا، يومها ذهبت مع ماما إلى إحدى محاضرتها بالصدفة بعد جلسة التحليل النفسى. وحدث لى اضطراب غريب وقتها وقلت لماما حارس المستشفى هنا، لقد جاء من اجلى، أنا خائفة، أنا خائفة، احمينى منه ارجوكى. وتوسلت إليها وظللت اكرر هذه الكلمات عدة مرات. لم أكن رأيت الحارس، ولكن كان لدى هاجس بخطر وشيك. وفى الواقع كنت إلى حد ما غير واعية بتفاقم حالتى لهذه الدرجة، ولم يكن لدى أى قناعة بأنهم يريدون إدخالى المستشفى فى هذا اليوم.

وقامت ماما بتهدئتى وتركتها وأنا مطمئنة تماما. وغادرت إلى المنزل الذى على بعد نصف ساعة مشيا (سيرا) على الأقدام من قاعة المحاضرة ومكتب ماما، كنت أسير بخطى معتدلة بسبب المهام المنزلية المعتادة فى يوم السبت التى تنتظرنى. وفجأة توقفت بدون أى داعى للقلق وبدون أى نية أن أكون درامية، ودفعتنى قوة خفية لأعود إلى ماما مرة ثانية. وعندما فتحت الباب اندهشت لرؤيتى. كانت هذه أول مرة أعود لها بعد مغادرتى. أخبرتها بما حدث معى فى منتصف الطريق إلى البيت وفجأة قلت لقد عدت اليك كى تحمينى من حارس المستشفى. انه يريد أن يأخذنى إلى هناك.

كنت اشعر بالخجل لأننى أضايق ماما بدون أى سبب واضح، واختفى القلق الذى اعترانى خلال المحاضرة. وليس من الضرورى أن أقول أن ماما رحبت بى لأكثر من ساعة. ثم تركتها وذهبت إلى البيت

لأجد الكل مضطرب جدا. سألتهم ماذا حدث؟ وأجابنى احد إخوتى أن الحارس وعاملة الرعاية الاجتماعية جاءوا ليأخذونى إلى مستشفى مجلس الرقابة الطبية. وتزامن وصولهم إلى البيت مع نهاية المحاضرة عندما شعرت بهاجس وجودهم وما أخبرت به ماما أثناء المحاضرة. ويبدو أنهم انتظروا لمدة (لفترة) ساعة ونصف وإذا لم يأتنى هذا الشعور فى منتصف الطريق إلى البيت وان كنت عدت مباشرة بعد المحاضرة لكانوا أخذونى بالقوة معهم. بفضل مع حدث فقد هربت من صدمة شديدة. وعندما تعبت من الانتظار ولم اعرف ماذا افعل أو متى أعود كانوا قد ذهبوا فعلا.

وفى خلال هذا الوقت استطاعت ماما ترتيب دخولى مستشفى تطوعى خاص به أجنحة مفتوحة بدون حراسة مشددة.

فى البداية شعرت براحة إلى حد ما فى هذا الملجأ والمأوى الذى أبعدنى عن أوامر النظام، لأنه كان غير مسموح لى بالتواجد فى المطبخ أو أى مكان به نار أو ثقاب كبريت. ورغم ذلك فإن الأوامر بدأت فى الظهور والتكرار بكثرة وبعدها شعرت أنى مجبرة لفعل أى شيء فى استطاعتى لتنفيذ هذه الأوامر. حاولت أن اصل إلى المطبخ أو الثقاب أو حرق نفسى بواسطة الفرن. لم أكن اهتم بالغاز لأنه بالنسبة للنظام فإن الشعلة التى صنعها الإنسان لم تكن نقية. ولكن كانت هناك ممرضة تتبعنى باستمرار فى حال رأتنى أغادر الردهة أو غرفتى وتمنعنى من الدخول إلى المطبخ.

وكم شعرت براحة عندما أدركت أننى لا أستطيع تنفيذ أوامر النظام ! لأننى كنت لا أزال على وعى وشعور كامل - كأننى لم أكن أستطيع فهم- أن إطاعة أوامر النظام تتضمن ضرر كبير لتكامل لشخصيتى. ولكن عندما وضعت الممرضة عائقا فى طريقى لم أتصارع مع هذه الأوامر.

ولاحظت أننى اذا ما وافقت على أوامر النظام فإنه لن يتركنى وشانى ولكنه سيصبح أكثر تطلبا. علاوة على ذلك لو أننى وصلت إلى المطبخ، يصبح الدافع اكثر الحاحا ويمزقنى إلى نصفين بالمعنى الحرفى. من ناحية تشبث عقلى بالنظام وامن تماما بوجوده وقوته، ومن ناحية أخرى فإن حس داخلى ضعيف ولا يوصف كان يوقظ غريزة البقاء عندى ويمنعنى كل مرة تأتينى فيها الأوامر بحرق نفسى. ومع عدم وجود حل لهذه المعضلة لضميرى، شعرت بالذنب فى كلتا الحالتين فى صراعى ضد الأوامر وفى إطاعتها أيضا.

ونتيجة لهذة المعضلة كان العائق المادى وحدة (الممرضة) هو الذى يحررنى من هذا الصراع. وعندما كان يدفعنى دافع لحرق نفسى كنت انزل الدرج وأسرع إلى المطبخ. أحيانا كنت أجد الباب مغلقا وأنتظر أمامه، ثم أعود لغرفتى لعدم وجود أى شيء أخر أقوم به. كنت امضى معظم الوقت أقف متجمدة عند الباب غير قادرة على مغادرة المكان على الرغم من الإرهاق الشديد وكانت تغمرنى السعادة عندما تأخذنى الممرضة من ذراعى بعيدا عن المطبخ.

لسوء الحظ أن المديرة كانت مهتمة جدا بالانحرافات النفسية (شيئا علمته بعد شفائى) وعندما كانت ترانى ذاهبة إلى المطبخ، وبدلا من منعى من الوصول إليه، كانت تتظاهر بعدم رؤيتى وتتركنى أنفذ دافعى وتتبعنى بهدوء وتلاحظ ما سأفعله وتركتنى اصل إلى هدفى وتدخلت فقط فى اللحظة الأخيرة عندما وصلت إلى الشعلة وثقاب الكبريت.

كنت اشعر أحيانا أنها خلفى وكنت اكرهها لأنها تركتنى أصارع الأوامر وحدى. وبالإضافة لذلك ولأننى كنت دائما مقهورة وبسبب حالة القلق والضلالات التى وجدت نفسى فيها، كان الصراع المستمر يزيد من قسوة هذه الأوامر. حيث انه فى كل مرة كان يتم ردعى بعائق خارجى كانت الأوامر تقل بشكل كبير ولكن سلوك المديرة سبب لى أذى شديد.

ازدادت حدة الأوامر ولم يستطع الطبيب أن يبقينى فى مستشفى مفتوح وكان لابد من نقلى إلى مؤسسة مغلقة ذات حراسة مشددة، واجتاحنى قلق مرعب لمجرد التفكير فى دخولى مستشفى المتنورين. وبدا لى أن دخولى التام إلى ارض الضوء أمر محتوم. وبكيت وتوسلت ووعدتهم أننى لن أطع النظام. ولكن كل هذا ذهب سدى وكان لابد أن أغادر. لم تكن وعودى لهم ذات قيمة لأننى لم أكن أستطيع الوفاء بها وعلمت انه لو لم يكن عليهم مراقبتى طوال الوقت لظللت هناك. ومع ذلك وعلى الرغم من هذه القناعة وبخاصة على الرغم من الرغبة

الشديدة فى البقاء بالقرب من جنيف حيث أستطيع رؤية ماما كل يوم. وعلى الرغم من خوفى الشديد من حبسى فى مستشفى للمتنورين لم استطع أن اعصى أوامر النظام. وعلى العكس وتحت تأثير رغبتى فى تقليل الأوامر، بدا لى أنها تزداد بشكل كبير.

وجاء اليوم الموعود، واتوا ليأخذونى بالسيارة وجاءت معى ممرضتى. وافهمونى أننى سأذهب إلى مستشفى خاص بالقرب من مقاطعة جنيف. ولسوء حظى أخذونى بالخطأ ليس للمستشفى الخاص وإنما إلى مصحة مغلقة للسيدات وعندما وضعونى فى غرفة فى هذه المصحة ورأيت القضبان الحديدية على النوافذ والنساء تصرخ وتشتكى ويتحركن بطريقة غريبة، تسمرت فى مكانى كالتمثال وعرفت أننى سأموت من الحسرة والحزن. واختفت ممرضتى بدون أن تودعنى. وبقيت وحيدة فى هذا المكان العجيب وصدمت بالرعب واليأس القاتل.

وأخذتنى الممرضة إلى الحمام وساعدتنى فى خلع ملابسى ووضعت فوقى قميص كبير مصنوع من مادة خشنة وحممتنى بماء بارد. وصدمت بهذا البرودة وهذا القلق وهذا الرعب مثل طائر سقط من عشه وأحاط به الموت من كل جهة.

ولكن فى أعماقى وبدون أى شك نشا عندى دفاع ضد ما حل بى. لم ابكى مثلما تمنيت ولم أبقى صامتة. كانت الكلمات الأولى التى نطقتها بعد وصولى عبارة عن طلب عقلانى جدا بإضافة بعض الماء الساخن لحوض الاستحمام. وعندما رفضت الممرضة أكدت لها أننى

أعانى من أزمـة بالرئة وبالتالى يمكن أن أصاب بنزلة برد خاصة أن النوافذ كانت مفتوحة وكنا فى منتصف فصل الشتاء. شكلت هذه الاحتجاجات بداية بناء الدفاع بداخلي. وحقيقة لم أكن أبدا من هذا النوع الذى يشتكى وبالتأكيد لم تكن برودة الماء هى السبب. وعلى العكس من طبيعتى السلبية تماما فقد اندهشت الآن لاهتمامى بصحتى وعدم رغبتى فى أن أصاب بنزلة برد.

لمدة ساعة ونصف قضيتها فى حوض الاستحمام قبل أن أعود إلى غرفة المراقبة حيث وضعوا سريرى بين بنتان اخريتان ويواجهنى ثلاثة آسرة أخرى لثلاث سيدات. وعلى جانبى كانت البنتان مريضتان من المستشفى الخاص ولكن كانوا يعانون بشدة ولا يسمح لهم بالتواجد فى مستشفى نصف مفتوح، والسيدات اللاتى أمامى هن مرضى فقراء جدا وضعتهم سلطات المقاطعة هنا.

بقيت نائمة على ظهرى متجمدة فى وضع مقاومة شديد. أشاهد كل شىء من حولى فى محاولة للتركيز جسديا وذهنيا فيما يدور فى هذه الغرفة. كنت اشعر بفزع فى قلبى واضطراب وقلق لا يوصف ويأس لا نهاية له. وكان هناك صوت متواصل يقول لى هذا هو الحال رينيه، هذا ما فعله النظام بك، هل ترين رينيه لقد حبسك فى ارض الضوء، أنتى وحيدة فى عقابك، أنا وحيدة وخائفة، رينيه خائفة.

وحاولت بكل قوتى إبعاد هذا الصوت الذى يشبه صوت الطفل الصغير الذى كان يتكلم بضمير الغائب لعدم اكتمال النمو اللغوى لديه.

وعلى كل الأحوال كـان لابد أن أهدئـه ولم اسمعـه بعد ذلك لأنه كـان يستـمر فى شكواه بدون انقطاع. كنت متـأكدة أن حصن الدفاع لدى سوف ينهار ويتفتت وسوف استمر فى الصراخ من الأسى والألم.

ونظرت حولى بعدوانية وشعرت أننى على وشك إعلان هزيمتى فى هذا الصـراع، وأخرجت النسيج الذى أحضرته معى وبدأت اغزل جـوارب لطفل صغيـر، وأحـصى عـدد الغرز ويغـمرنـى اليـأس. وظل الصوت الصغير يردد بإصرار أكثر ماما، رينيـه خائفة، النظام يعاقب رينيه، رينيه خائفة.

ولحسن الحظ جاءت ممرضة إلى سريرى تلقى محـاضرة عن الجنس، ثم جاءت الطبيبـة بعدها لتتفقدنا. وسألتنى العديد من الأسئلة ولكنـى لم اقل كلمـة واحـدة عن النظام أو الأوامـر وكنت أتكلم بحـرص شديد عن باقى الأشياء الأخرى غير ذات الأهمية. ولاحظت أنها تشبه أحدى صديقاتى اللاتى كنت أعدها رائعة الجمال. وسألتها متى سأغادر هذه الغرفـة وأننى أريد غـرفـة خاصـة بى ولا يهم أين تكون حـتى أن كانت فى القبو أو زنزانة صغيرة.

وأجابتنى على هذا بأنه لا يوجد غرف كافية فى هـذا القسم وانه سيتم تحويلى إلى مستشفى خاص عندما تتوقف الأوامر عن ملاحقتى، وتحولت من التحفظ الشديد والصمت إلى الكلام الكثير وأصبحت أقاطع الممرضـات. وداومت على غزل الجوارب ولكن هذا النشاط البسيط لم يكبت هذا الصوت الصغير. كان المجهود الذى ابذله للتحكم فى قلقى

وخوفى كبير جدا حتى أننى كنت أتعرق بغزارة على الرغم من أننا كنا فى منتصف فصل الشتاء.

وبالإضافة لهذا كنت خائفة جدا من المرضى الآخرين ولم استطع إغماض عينى فى الليلة الأولى، والليالى التالية كنت استيقظ من أى صوت بسيط. وكان من المستحيل بعدها أن أنام وسط صيحات وشكاوى امرأتان موجودتان فى غرفة المراقبة.

وكانت الممرضة المسئولة تؤكد لى انه لا داعى للخوف من المرضى الآخرين، ولكن بمجرد خروجها قامت المرأة فى السرير المقابل لى وركضت نحوى وخطفت التفاح والكمثرى من على طاولتى واختبأت فى سريرها وابتلعت الفاكهة حتى أكلت البذور. وفزعت من هذا السلوك وعندما عادت الممرضة أخبرتها بما حدث.

ولكن الممرضة نظرت لى بقسوة وقالت لى آنسة لا يجب أن تبدأى بالكذب، فهذا لا يمكن أن يحدث. ما تقولينه مستحيل، هذه السيدة لم تتناول الطعام لمدة ثلاث سنوات وكنا نضع لها الطعام بأنبوب اصطناعى. وعندما أصررت على ما قلته قالت توقفى الآن عن هذه الأكاذيب وإلا سأخبر الطبيبة. وتركتنى.

كنت مستلقية ومتعجبة هل يمكن أن أكون قد حلمت بقصة سرقة الفاكهة هذة. ولكنى لم اتهم فى حياتى بالكذب. وفى هذا المساء عندما كانت الممرضة ترتب آسرة المرضى وجدت بقايا الفاكهة، والتفتت نحوى وضحكت وبدون كلمة اعتذار واحدة قالت أنتى على حق.

وعندما سمعت الطبيبة القصة أثناء مرورها على المرضى اندهشت وقالت هذه طريقة جيدة لإطعام السيدة (س)، من اليوم وصاعدا سنضع طعامها على طاولة الآنسة رينيه وستأخذها السيدة (س) فى الليل. وازداد خوفى أكثر وأكثر.

فى اليوم التالى جاءت امرأة ضخمة البنية باتجاهى من غرفتها وقالت وهى تضحك ضحكة مثيرة أوه هذه الصغيرة لطيفة جدا. وضربتنى على خدى بشدة حتى أن أصابعها تركت أثارا على بشرتى، ثم انصرفت. وعندما رأت الممرضة احمرار بشرتى عرفت السبب. وقالت هذا لا شىء أن السيدة (ص) تضرب كل المرضى الجدد. ولكنها ليست سيئة. وعلى الرغم من هذا كنت كلما رايتها ارتعش خوفا من أن تضربنى مرة ثانية.

ولكن ما كان يفزعنى شيئا حدث بعد أيام قليلة حيث دخلت المستشفى امرأة أطلقت الرصاص على أخرى فى احد الفنادق، وجاءت إلى سريرى تبكى وتصرخ هذه البنت الصغيرة العزيزة لقلبى وتدغدغنى، وحاولت رفع ثيابى وتقبيلى حتى جاءت الممرضة أخيرا لتدفع عنى هذه المرأة وتوبخها كى تتأدب فى سلوكها. وشملنى اشمئزاز رهيب من محاولاتها للتقرب منى.

وأضافت مثل هذه الخبرات لشعورى بالهياج وجعلتنى دائما مستعدة للدفاع اليائس عن نفسى ضد المخاطر الخارجية والداخلية الموجودة دائما والتى تهددنى.

واستمريت في الكلام بقدر كبير للتخلص عن الطرود التي تلقيتها، وكتبت خطابات لكل الأشخاص الذين اعرفهم. وكان الغزل (التطريز) جزء من نظامي الوقائي. كان لابد أن اكتب لأي شخص وان أتحدث عن أي شي لمدة طويلة حتى لا اسمع شكوى الصوت الصغير الداخلي أو انشغل بالنظام، حتى يخرجني الأطباء من هذا الجحيم.

وأدى هذا السلوك المبالغ فيه إلى سوء فهم بين الأطباء. حيث اعتقد الجميع أنني تحررت من النظام لأنني لا اذكره على الإطلاق. وأكثر من هذا، اعتقدوا أنني كنت اطلب من أصدقائي أن يرسلوا لي هذه الطرود. ويا عجبا لقلة معرفتهم بي! وأنني كنت فرحة وفخورة بهذا، أنا التي لم أقوى على سؤال اقل الأشياء من أصدقائي! ولكن المظاهر كانت ضدي. لم اعرف سبب كل هذه الطرود من أصدقائي من حلوى وفاكهة وكل هذه الأشياء، لعله لأننا في وقت الأجازة. على أية حال فقد استلمت العديد من الطرود أكثر من أي وقت مضى في حياتي. بعد ذلك كتبت للجميع اخبرهم أن المكان هنا قارص البرودة، أنا لا اشعر بالدفء. لابد أن شيئا ما ينقصني للشعور بهذا البرد.

لم اقصد بكلماتي هذه البرود الخارجي ولكنه برد داخلي بسبب عزلتي واستحالة قدرتي على جمع شتات نفسي. ولكن أصدقائي فهموا المعنى الخارجي لخطاباتي وللعجب فقد وصلتني العديد من المنسوجات الصوفية. لم استطع فهم لماذا يرسلن لي أشياء لا استخدمها أبدا لأنني

اكره الصوف ولم ارتديه حتى فى اشد أيام البرد القارص.

ولكن لأننى كنت فقيرة، اعتقد الأطباء أننى أحاول استغلال معارفى وأصدقائى. ولكنى ببساطة كنت اكتب لأشغل نفسى فقط، محاولة فعل أى شى أخر بدلا من الاستماع لهذا الصوت الداخلى الصغير.

اعد الأطباء فخا لى لاعتقادهم أننى اخدع ماما. كانت فى العادة الخطابات التى اكتبها لماما مختلفة تماما عن باقى الخطابات التى أرسلها لأصدقائى، ولم اذكر لها أى من الطرود التى وصلتنى. كانت هذه الأشياء لا تمثل لى أى أهمية وسط معاناتى ويأسى، ماذا تغير الخطابات والأشياء التى كنت أتخلص منها بمجرد وصولها؟. ولكن بالنسبة لماما كانت هناك أشياء أكثر أهمية لأخبرها بها. لم أكن اكتب إليها لتحمينى من هذا الصوت المتكرر والمستمر ولكن لأننى أردت أن أتحدث إليها واخبرها بكل شىء يحدث معى.

وقد جعل هذا الأطباء يعتقدون أننى اخفى عن ماما المزايا التى أتمتع بها والهدايا التى تصلنى من الآخرين. واقترح احدهم أن ابعث كل خطاباتى لماما كى تدفع قيمة طوابع البريد! ولكنى رفضت بشدة معتبرة هذا استغلال لها، ولم أكن أجرؤ على سؤال ماما مثل هذا الطلب.

وبسبب هذا الرفض استنتج الأطباء أننى شخص مخادع ومستغلة للآخرين. ولكنهم لو كانوا طلبوا ببساطة أن اعرض هذه الخطابات على

السيدة سيتشهاى لم أكن لأتردد لحظة فى هذا لأنه ليس لدى ما أخفيه عن ماما. وكان الأمر لا يستحق كل هذا ولكن باستخدامهم حجة الطوابع هذه بدا جليا أنهم يظنون أننى مخادعة وماكرة.

وحدثت المأساة عندما جاءت ماما لرؤيتى واخبرها الطبيب بخداعى وما اسماه اللعب المزدوج فى تناولى للطعام. لأنه بالعودة قليلا بالزمن فقد تم نقلى إلى حجرة جميلة فى مستشفى خاص وكنا نتحرك بحرية تامة فيما عدا مغادرة المبنى. وعلى الرغم من أن الأوامر كانت تحرم على الطعام إلا أننى كنت آكل قليلا، وكنت أعطى الممرضة كل ما يصلنى من طعام لتعطيه للمرضى فى المصحة. واعتقد الطبيب أننى أتخم نفسى بالحلوى وبالتالى لا اشعر بالجوع فى وقت الوجبات الأساسية.

ولكنى لم اكن المس أى شيء من طرود الفاكهة ماعدا ثمرة تين واحدة، ولم استطع حتى القول بأننى جائعة، ولكن على العكس فقد كنت أتضور جوعا. ولكن النظام لم يكن ليسمح لى بإشباع هذا الجوع. ولم اقل أى كلمة عن هذا لأنهم كانوا سيعدوننى مرة أخرى إلى هذا المستشفى الذى لم ارغب فيه يوما.

وروى الطبيب كل الخدع التى اقتنع أننى أقوم بها لماما عندما جاءت لرؤيتى. ولسوء حظى كانت المظاهر كلها ضدى وصدقته! ولم تستطع فهم أن الطبيب يمكن أن يكون مخطأ. وعلمت لحظة وصولها أن هناك شيء قد تغير فيها من خلال طريقة معاملتها لى. ولأننى لا اعلم

تماما ما قاله الطبيب ورأيه فى حالتى لم اعرف كيف أتصرف حيال هذا الجمود الذى كانت تعاملنى به.

واجتاحنى حزن جنونى شديد مرة أخرى، لقد اخذ منى، ملجأى الوحيد، جزيرتى الواقعية. وفى هذه اللحظة اقتنعت أن الخطأ فى النظام الذى جعل ماما تتنكر وتقف معه ضدى كى يعاقبنى. وما هذا إلا إشارة من أن النظام يتمنى موتى. لأننى لا أستطيع الحياة بدون ماما. ورغم أننى شككت مسبقا فى قدرة هذا النظام على الأضرار بى ولكن هذا التغيير المفاجئ أكد شكوكى ما حدث كان شيئا فظيع ووحده النظام المخادع يستطيع تنفيذه.

وسقطت فى هذه اللحظة فى عالم من الضلالات الأكثر ضراوة وشراسة ولا نهاية لها. ورحلت ماما وتركتنى بإحساس من الهجر والحزن الذى يسحق العظام. وتوسلت إليها أن خبرنى ما الجرم الذى ارتكبته أو الذى اجبرنى النظام على القيام به أم أنها لم تعد تحبنى بعد الآن. وزادت من حيرتى إجابتها الحذرة وغير المفهومة.

وانهار بناء الدفاع الكامل الذى بنيته منذ وصولى إلى مستشفى الأمراض النفسية، وظللت ابكى طوال الليل والنهار، لأننى فقدت ملاذى الوحيد ولم أكن استطع احتمال هذا، لو ذلك لأننى أحببت ماما جدا وجاء النظام ليسرقنى من عطفها ورعايتها. وفكرت فى عدة وسائل للتخلص من حياتى وللهروب من النظام والرعب الذى ملئ حياتى. لم أعطى لأفكارى أى مصداقية، وفكرت وسالت نفسى ما

الشيء الفظيع الذى فعلته لتحريض النظام كي يجعلني اخسر حب ماما. ولم أجد أى سبب لخطيئتي ولكن الجهل به لم يمنع إحساسي العميق بالذنب لان ماما كانت غاضبة مني.

وكان انطباع الأطباء الخاطئ عنى أخر ما يخطر ببالي. وسألني احدهم هل تعجبني الستائر في غرفتي؟ فقلت له إنها فظيعة وبقولى هذا لم اقصد ابدا أن أكون مزعجة. ولكن في هذا الوقت وطبقا لمفهومي للعالم وان الأشياء لا توجد بداخل وخارج نفسها ولكن كل شيء يرى بعدة وجهات مختلفة. وبالتالي كان من الطبيعي أن يرى الطبيب الستائر جميلة وتراهم الممرضة مثيرة للاهتمام واراهم أنا فظيعة. وهذا السؤال لتكوين العلاقات الاجتماعية أو لتجاذب أطراف الحديث لم يثير فضولي على الإطلاق ولم أتصور أن إجابتي هذه سوف تجرح كبرياء الطبيب الذى اعتبرها سوء تربية ومهينة. كان ملمح الخيال بالستائر المعلقة مجرد من أى حس خيالي وكنت لا أبالي بهم على الإطلاق. وتم بناء الانطباع العام السيئ عنى بمثل هذه الأشياء.

اكتشفت ماما بعد ثلاثة أيام خطا الطبيب وكتبت لي مرة ثانية كما كانت تفعل من قبل. ويستحيل أن اصف شعوري بالارتياح عند استلامي خطابها. لقد ولدت من جديد. وعلى الرغم من سعادتي، ظل تشاؤمي أو النظام بمعنى اصح يثقل كاهلي. لأنه منذ هذا اليوم وصاعدا ظل النظام كامن بداخلي وبقيت تحت سيطرته تماما. وفي احد المرات كان أقوى من ماما لأنه نجح في خداعها وهي تعرف عنى كل شيء

وقد قلت لها كل أسرارى وفتحت لها صفحات قلبى وعقلى ولكنها صدقته رغم كل هذا. وعلى الرغم من خوفى للعودة إلى المستشفى مشدد الحراسة ولأننى كنت مشوشة فقد تكلمت عن النظام مع الطبيب رغم إرادتى ولم استطع المقاومة أكثر من هذا.

اعتقد الطبيب إننى نسيت النظام واندهش بشدة لاكتشافه العكس، ولكن هذا الاكتشاف لم يغير شيئا من النتائج لأننى غادرت المستشفى بعد فترة قصيرة.

٨- غرقت في الضلالات

VIII: I Sink into Unreality

لمدة ثلاثة أسابيع، رحبت ماما بى فى بيتها الذى عجل رجوعى ثانية لمستشفى جينيف الخاص. ومن هناك عدت إلى منزلى، فقط لأسقط فى حالة من اللامبالاة والخمول.

لم أتلق أوامر من النظام بعد هذا ! وقل إحساسى بالقلق ولم يبادرنى شعور بالخوف إلا نادرا. وأختفى شعورى المعتاد بالمسئولية؛ ولم أرفع إصبع لأبحث عن عمل أو أساعد أسرتى. وجلست جزء كبير جدا من اليوم على كرسى، أحدق بثبات أمامى، أو أستغرق فى تأمل بقعة صغيرة لم تكن أكبر من حبة الحنطة أو القمح؛ كانت تأخذ هذه البقعة انتباهى لساعة دون أن يتحرك لى جفن وأنا مستغرقة تماما فى هذا العالم الميكروسكوبى.

وحدها القوى القوية تستطيع أن تسحبنى منها وسحبت نفسى بعيدا لأجهز نفسى لأذهب إلى ماما. ولكننى شعرت بإجهاد كبير حتى كانت أقل حركة تتطلب منى جهدا كبيرا غير عادى لأتغلب على حالة الخمول التى سيطرت على جسدى لفترة. بمجرد البداية فى الحركة بدت الأشياء أسهل ولكن بعدها لا أستطيع التوقف. بذلت مجهودا كبيرا وتدبرت أن أقوم ببعض الأعمال المنزلية أو لأعداد الغداء. على الرغم

من هذا ظللت معظم الوقت جالسة غير مرتاحة، ضاع تحديقى فى قطرة قهوة سقطت على الطاولة.

انتهت النار وشعرت بالبرد. سمعت الساعة تدق العاشرة، الحادية عشر، الحادية عشر ونصف وقد تذكرت أنه وقت إعداد الغداء. بصعوبة تحركت عينى من نقطة القهوة إلى مقود الطهى الأسود. ولكن القطرة مثل المغناطيس، أدارت عينى لها ببطء واستقرار. وأطعت وبراحة عميقة استغرقت ثانية فى العالم غير المحدود لقطرة القهوة.

من وقت لآخر، كانت الجمل تتجول فى روحى الحالمة: لكنك سترى أو تماما أو كلمات غير ذات معنى، ايشو، جوا، جوا. وأخيرا تعترى جسمى قوة إرادية هائلة فكنت أقوم فجأة وأبدأ فى العمل. ولكن كيف تصارعت عينى! بمجرد أن تقع نظرتى على بقعة من أى نوع، ظل أو شعاع ضوء، لا أستطيع أن ابعد نظرى عنها، فيستحوذ على عالم الدقائق الغير محدود.

و لكن لأخرج نفسى من هذه العثرة، بدأت أضرب الطاولة أو الحائط بكلتا قبضتى، لكن مجهودى كان يضيع بلا جدوى. فبدلا من أن أتخلص من تعمقى فى النظر إلى هذه البقعة، أضيع تماما فى تأملى لها بمنتهى التلقائية. واحدة من اخواتى استجابة لهذه الضوضاء اندفعت إلى لتوقف ما أسمته هذه اللعبة السخيفة. ورغم أن تدخلها ساعدنى ومكننى أن أكمل عملى ومع دقات الثانية أقترب ميعاد الجلسة

التحليلية، شعرت أن الحياة نبعت قليلا بداخلى وأصبحت تحركاتى أكثر مرونة وأكثر طاقة.

أثناء الجلسة اشتكيت إلى ماما من الماء الذى يرتفع، أكثر وأكثر ويوشك أن يغرقنى. بالنسبة لى فان الماء كان بمثابة حالة الخدار والخمول التى سيطرت على وقد أصبحت عاجزة عن التخلص منها. ولكن التواصل مع ماما جدد حياتى وعندما رجعت إلى المنزل كنت مسترخية أكثر وأقل أوتوماتيكية من الصباح.

أحيانا يدفعنى شيئا للغناء، للصراخ بأعلى صوتى؛ أو أضع خطط مفصلة؛ أو لأصنع مثلا، عربة مريحة جدا للأطفال يستطيع الطفل أن يسافر بها دون اضطراب؛ أو أتخيل أن كل شخص مات ماعدا أنا وأننى أصبحت الساكنة الوحيدة للأرض وكل شىء بها ملكى وتحت تصرفى. لأننى لم أعد أقاومه أكثر، عانيت أقل من الضلالات نفسها. كنت أعيش فى بيئة فارغة مصطنعة ولا مبالية وغير مرئية وحائط صلد يمنعنى عن الأشخاص والأشياء. رأيت القليل من الناس وأردت فقط أن أكون وحدى أختبئ فى قبو حيث أجلس على كومة من الفحم، واظل هادئة، لا أتحرك، ترتكز نظرتى على بقعة أو شعاع من الضوء.

و لكن خلف هذا الحائط من اللامبالاة، فجأة باغتتنى موجة من القلق والخوف؛ الخوف من الضلالات. بدأ إدراكى للعالم يزيد من إحساسى بالاستغراب تجاه الأشياء. فى هذا الصمت واللانهائية كان كل شىء مقطوع بسكينة، تائه فى الفراغ، فى اللامحدودية منفصل تماما

عن الأشياء الأخرى. بدون أى علاقة مع البيئة، فقط بكونها نفسها، بدأت تدب الروح فيها. كانت هناك، تواجهنى، تفزعنى، وقلت الكرسى يسخر منى، أنه يقوم بالخداع معى.

لم يكن هذا صحيحا الى حد ما، ولكنى أستطع السيطرة على الكلمات التى تعبر عن خوفى وهذا الوعى اليقينى أن الكرسى كان حيا وليس له أى مغزى آخر.

أحيانا أزمات الضلالات كانت تقع فى الشارع. بدا كل شىء ميت، بدون حياة، متحجر، سخيف، وفى ظل هذا السكون صرخة طفل كانت تثير وتجدد الخوف لدى. كنت مرفوضة من العالم، فى الحياة الخارجية، فقد كنت المشاهد الوحيد لفيلم فوضوى يعرض بشكل متواصل أمام عينى ولم يكن لى دور فيه. هذه اللحظات الفظيعة، بدون حماية، مريضة لعلة مجهولة، لم أستطع فعل شىء غير الاستسلام.

فى وسط هذا السكون القاتل، عواصف من الغضب الفظيع والحنق المرير تعتمل بداخلى. ونوع من الحقيقة، أخوتى وأخواتى كانوا يضايقونى بشدة، خاصة أختى التى كانت تأخذ أغراضى الجميلة وتغيظينى بواسطة حاولى أن تسترجعين قفازك. تعالى وأبحثى عنه إذا كنت تريده. وكان هذا يغضبنى بشدة ولحظة ما تغادر المنزل كنت أركض لأخذ شىء من عندها وأخبئه كى لا تستطيع استخدامه. وفى نفس اللحظة على الرغم من هذا يجتاحنى شعورا بالخزى والندم وأصبح

تواقة إلى أن أؤكد لها أننى لست مثلها، بل إننى أفضل منها. لذا كنت أخذ ما قمت بإخفائه وأرجعه مرة ثانية لمكانه. وكانت أمى دائما تقف فى صفها وتنهرنى بشدة وتكرر على دائما أننى البنت الكبرى لذا يجب أن أكون أكثر تسامحا مع أختى، وعلى أى حال الأخوات دائما يتعاركون ويسلبون حاجات بعضهم البعض. وكان هذا الظلم يجعلنى تعيسة وكنت أشعر بارتياح بإخبار ماما كل شيء لأنها هى التى كانت تحمينى وتدافع عنى.

و كان الاصطفاف بجانب أختى على الرغم من أنه يبدو برئ، إلا أن تأثيره على كان بشعا. كرهت أختى لأننى كنت أشعر بالغيرة منها، غيرة من شجاعتها، من طريقة حياتها البسيطة التى تتمتع بها، من استقلالها، بينما أنا كنت جبانة، لم أجرؤ على عدم الطاعة حتى لو أنه من حقى، وترددت فى الاستمتاع بأى نوع من السعادة، ولم أشعر قط بشيء من الرضا أو السعادة خلا فى بعض اللحظات حينما كنت أفكر فى هؤلاء الأقل حظا.

فى هذا الوقت، كان أحد اهتماماتى التمشية أمام المستشفى النفسى الذى يبعد قليلا، وقد كان يثير دهشتى أن نافذة جناح المرضى العقليين بالمستشفى كانت تطل مباشرة على الطريق العام. بالتأكيد حتى عند دخول هذا الشارع، كان الصراخ والبكاء مسموعا. لمدة ساعتين فى نفس الوقت كنت أسمع رجل يتحدث ويصرخ وعلى الرغم من أننى لم أفهم الكلمات اعتقدت أننى سمعته يقول أختى، أختى،

هناك ظلم لا يحتمل، أخوتى، لا تسمحوا له بالاستمرار فى هذا العالم. هناك بؤس وشقاء رهيب ينتظركم. أخوتى، أنا فى ألم لا يحتمل. ساعدونى، أخوتى، لا تتركونى، أنا راقد تحت أثقال من الذنب والعذاب. أنا متهم بجريمة لا يبرأ ضميرى من ذنبها وليس لى مفر من عذاب اقترافها. أنا متهم من كل النواحى، أنا برىء ولكنى مذنب فى نفس الوقت. معاناتى ليس لها حدود. هل يمكن أن تساعدونى، أخوتى أنا أتعذب، أنا خائف، أنا مجرم برئ.

و فى وسط صرخاته المجنونة ودموعه المتوسلة اختبرت معاناتى أنا. وشعرت بشفقة لا تنتهى تجاهه، ثم تمنيت أن أساعده. ومع هذا تكوم الرعب أننى قريبا يجب أن أذهب أيضا لأشاركه فى أرض النور.

٩- بعد رحلة مفيدة، أزمة حادة تحيرني

IX: After a Beneficial Trip an Acute Crisis Confounds Me

فى هذه الحالة العامة من الثبات المفعمة بواسطة أزمة من القلق والعدائية تجاه أخوتى وأخواتى، ماما أخذتنى إلى شاطئ البحر لمدة ٣ أسابيع. وكان هذا بمثابة إشباع كبير لى، أولا بسبب أننى سأكون مع ماما بدون أى مقاطعات وثانيا، أستطيع مشاهدة البحر الذى كان دوما مصدر جذب لى ولكنه أيضا مصدر خوف.

و لكننى اندهشت عندما اكتشفت إن مدى شوقى لوجودى مع ماما لم يجعلنى سعيدة بالقدر الذى توقعته. ولكن على العكس خاب ظنى. من قبل، أثناء الجلسات، كانت ماما فقط ماما الآن فى هذه الرحلة وفى الفندق أصبحت السيدة سيتشهاى لذلك على الرغم من انتظارى لوجودى معها وحنانها وتعاطفها لم استطع التواصل معها. كانت متنكرة مثل سيدة وكنت أبحث بلا أمل عن ماما. لحسن الحظ كانت هناك جلسات علاج كل يوم وكنت أستطيع استعادة علاقتنا ثانيا، ولكن بعيدا عن الجلسات، كانت امرأة غريبة. وباءت كل المحاولات لعكس هذا الموقف المؤلم بالفشل.

خلال هذه الأجازة عايشت فقدان كامل للاحساس بالتطور. كان ذهنى مشوش وتداعى إدراكى تماما. وكان الشرح المفصل يتركنى

بدون أن أفهم الاتجاهات الجغرفية الأربعة الرئيسية. ولعلاج هذا وضعت خريطة خيالية أمامى وقلت لنفسى: أمامى الشمال، وخلفى الجنوب، وعلى يمينى الشرق، وعلى شمالى الغرب. ولكنى لو تحولت فجأة حول المناطق التى حددتها والتى أردت أن أضع ما يقابلنى فيها، كنت أقول نفس الجملة السابقة: أمامى الشمال، وخلفى الجنوب، وعلى يمينى الشرق، وعلى شمالى الغرب. لم أهتم بالشمس أو العلامات على الإطلاق. وضعت الاتجاهات الأربعة كلها بعلاقتها بنفسى أو طبقا لهذه الطريقة التى تعلمتها فى المدرسة، وكنت أنا المركز: فى أعلى الخريطة الشمال، وفى أسفلها الجنوب، وعلى اليمين الشرق، وعلى الشمال الغرب. ولكن الاختلاف بين الخريطة غير المتغيرة والواقع المتغير لم يعنينى ولو للحظة.

حتى البحر خيب أملى قليلا بسبب كونه مصطنع. ورغم ذلك هذا التغيير كان جيد بالنسبة لى واجترأت على عصيان النظام وأكلت أكثر بكثير عن العادة. ولمدة أسبوعين كان كل شىء جيدا بشكل كبير. ولكن فى الأسبوع الأخير بدأت الضلالات فى الظهور مرة ثانية عندما بدا كل شىء هائلا، منفصلا، ويتوهج بالنور. وزاد تنكر ماما من مأساتى، كنت أعانى بشكل كبير لأننى لم أستطع إدراكها على الإطلاق إلا لساعة واحدة فى اليوم، وانقطع تواصلى معها باقى الوقت.

بعدها بشكل أساسى، تضايقت منها لأنها سمحت للنظام بالتأثير على هذا التنكر. لماذا لم تكن ماما قوية؟ لماذا كانت تختبئ طوال

الوقت ماعدا فترة قصيرة؟ ولم أجرؤ على إخبارها بما يضايقنى، ليس بسبب إننى أردت إخفاء مضايقتى، ولكن لأننى عرفت أنها تحت تأثير النظام ولا تستطيع أن تهاجم النظام عن طريق نقد نشاطاته.

فى وقت الجلسات كانت كل طاقتى موجهة لمحاولة العثور على ماما مرة ثانية وأخيرا استعدت التواصل معها، وكنت أنهل من هذا النبع ليعطينى القوة لباقى اليوم. لم أكن أحلم أبدا بالإعلان عن ضيقى وأسبابه. ولكن ماذا تستطيع أن تفعل الشكوى؟ ماما لن تفهم هذا، سوف تجيب فقط بأنها لم تتغير ولم تتنكر وأن هذه المشاعر مجرد أوهام أو سوء فهم لما يجرى. بالنسبة لى، كنت مقتنعة، بدون أن أعرف، أن ماما كانت لعبة فى يد النظام وإننى حزينة على ما آلت إليه.

بعد ذلك أيضا كان هناك المجهود الاجتماعى الذى يتوجب على فعله فى الفندق فقد زاد من شعورى بالضلالات وعدم الواقعية. إضافة إلى هذا، أننى أكلت كما يحلو لى، فى محاولة لكسر شتى قواعد النظام خاصة مما يجعلنى بالطبع مذنبة فى نظر النظام وكانت الزيادة الملحوظة فى وزنى أوضح دليل على عصيانى له.

و مع نهاية فترة الأجازة أصبح النظام أكثر تبينا من عصيانى وأشد إصرارا على تذنيبى. ولشعورى بالذنب كنت أجرى منقادة من الفندق واختبأ بين الصخور بالقرب من الشاطئ. ولأن ماما تعرفنى جيدا، كانت تخمن ببساطة أين كنت وتفهم أن الكهوف بجوار البحر تمثل ملجأ مثالى يمكننى أن اختبأ فيه وأجد فيه المأوى. وأصبحت

الأوامر ضاغطة أكثر وكان لابد أن ألقى بنفسى فى البحر أو أقطع شراييني، ولكن الأكثر إلحاحا كان أن أصل إلى أعماق البحر. وكان هذا ما يدعونى للاختباء فى كهف صغير كئيب لكى أهرب من عقاب النظام وقسوته.

فى ليلة مغادرتنا للفندق لم أستطع النوم حين شعرت أننى مجبرة على ألاستيقاظ من النوم وأهرب وأؤذى نفسى. ولم أعد أهتم لأمر الناس فى الفندق أو لأمر أى قيود أو تقاليد اجتماعية لأننى فى لحظة أسقطت كل الروابط الاجتماعية التى أثقلت كاهلى من الحسبان. تناولت مهدئا أعطته لى ماما وعدت إلى جينيف وأنا نصف نائمة. وأخذتنى ماما إلى المستشفى حيث وضعنى الطبيب فى السرير بمجرد وصولى.

كانت حالة الخمول واللامبالاة مازالت تسيطر على ولكنها تبدلت فجأة بحالة من الإثارة والاهتياج الداخلى والخارجي. فى البداية شعرت بما يدفعنى إلى الاستيقاظ والمشى، وكان من المستحيل أن أبقى فى السرير. أغنى ترتيلة جنائزية بلا توقف؛ كنت أمشى ثلاث خطوات للإمام وثلاث للخلف فى حركة أوتوماتيكية وهو ما أقلقتنى بشدة، وتمنيت أن يستطيع شخص أن يوقفنى. لم أستطع التوقف بمفردى وشعرت أننى يجب أن أقوم بهذه الخطوات إجباريا وإذا توقفت من التعب حتى للحظة، كان يعاودنى الشعور بالذنب مجددا. علاوة على هذا، عندما يتحول أى سلوك إلى الأوتوماتيكية فى فعله كنت أشعر

بالذنب للتوقف عنه ولو للحظة. ولكن لم يصدق أحد أننى أريد التوقف عن هذا الفعل، لأنهم بمجرد أن يجعلونى أقلع عنه كانت تسيطر على بواعث تنميطية تجعلنى أبداً فى تكرار نفس الفعل من جديد.

و بدا الناس حولى كأننى أحلم بهم، لكننى لم أستطع تمييز أى من شخصياتهم الفردية. كانوا مجرد آدميين هذا كل ما فى الأمر. كنت أرى فى كل شخص منهم إنسان وبالتالى كنت أدعوهم كلهم بالمألوفين. لو إننى كنت تائهة فى صحراء كبيرة، وقابلت شخص ما، هل أهتم باسمه أو شخصيته الفردية؟ كان كافيا أنه عضو من الإنسانية. ولذلك أخذت أقول أننا جميعا كنا أصدقاء قدامى، قائلة صباح الخير أيتها الممرضة، كيف الحال؟ أو لو سمحت أيها الطبيب ماذا تقول فى قيامى من السرير؟ مستخدمة الشكل الودى فى التعامل معهم.

فى بداية إقامتى فى المستشفى بدا كل شىء مضحك، تافه، سخيف. وفى وسط جنونى، كان النظام يبدو مألوفا وبدأت أطلق على رئيسه أنتيبول وهو أسم مرهم يستخدم فى علاج الالتهابات والقروح الجلدية. ووضعته على يمينى، وعندما كنت أتكلم معه كنت دائما التفت إلى اتجاهه. ولكن لم أراه أو أسمعه. ورغم ذلك كنت أجيبه ويضايقنى ما يقوله وأرد صارخة لا، لا، أنا لا أريد هذا، أنتيبول، أبقى هادئا، لن أستمع لك بعد ذلك، لا، لا،لا.

كان غضبى حقيقى ومتزايد؛ على الرغم من أننى كنت أجيب على الفراغ، ولكن ليس الفراغ، وليس صمت حقيقى. أحيانا كثيرة كنت

أرهف السمع وأنا فى غاية الخوف يس الصمت. وكان هناك اختلاف ملحوظ بين الجزء الايمن من الغرفة وباقى الغرفة. كان هذا الجزء اليمين على قيد الحياة، وكان هناك شخص ما واقعى جدا ورغم وجوده إلا أنه كان فارغ.

كنت القى بالأشياء إلى جهة اليمين باتجاه النافذة الفرنسية المغلقة َحيث وقف هناك معذبى، النظام، أنتيبول، بكل ما يقع تحت يدى من وسائد وآنية الماء ومشط الشعر، وكنت أحاول مطاردة انتيبول كى أتخلص من صوته الذى يؤرقنى.

حقيقة وبكل صراحة لم أكن أرى شخص أو اسمع أى صوت ولكن كان هناك اختلاف كبير بين الجزء اليمين من الغرفة والجزء الايسر. كان الجزء الايمن على قيد الحياة، كأن هناك شخص ما واقعى جدا ورغم وجوده إلا انه كان مفرغا.

وبالتأكيد كان يقف أمامى كتائب من الأشخاص يرتدون جواكت طويلة يمرون من أمامى ذهابا وإيابا. وحاولت بدون جدوى أن امسك بهم، ولكنى لم استطع كانت يدى تقبض على الفراغ. صراخ ونباح وضوضاء شديدة جدا كانت تجوب رأسى ولكن مجددا لم اسمع شيء بأذنى ولكننى كنت مجبرة أن اصرخ واصرخ واردد معركة الطرف الأغر، قذائف النيران، تماما، تماما، جوا جوا.

بعد فترة اختفى الجانب الكوميدى من الأشياء حولى وتحول العالم المحيط إلى ما يشبه الحلم. أقنعتنى الأوامر أو بمعنى اصح الدوافع

التدميرية بإيذاء نفسى. كنت أعض يدى وذراعى بقوة أو اخبط رأسى بالحائط أو الكم صدرى بقبضة يدى، وأصبحت مغطاة بالكدمات وكان من الضرورى أن احمى نفسى من نفسى. وتضاعفت الدوافع التدميرية بداخلى لتدمير نفسى مهما كلفنى الأمر. وكنت اشعر بالذنب حتى النخاع، ذنب لا يحتمل وفى منتهى الوحشية. ولكن لم اعرف ما هو سبب شعورى بالذنب، ولكنى كنت مذنبة. لم أتناول الطعام وحاولت بكل الطرق التخلص من حياتى، وكانت ماما وحدها تستطيع أن تحمينى من نفسى.

وعندما أظهرت لى شيئا ابيض مثل ملاءتى وقالت أترين هذا اللون الأبيض الجميل يثبت أن رينيه ليست مذنبة وهذا هو الدليل وشعرت براحة كبيرة. ولكن لسوء حظى كانت حالتى غير مستقرة لم تسمح لى بالإنصات لماما طويلا. وكانت الضوضاء والأفكار المتداخلة تمنعنى من التواصل الحقيقى معها. كنت أراها دائما سعيدة وباسمة وكانت تبدو غير واقعية ومصطنعة.

استمرت هذه الحالة لعدة شهور وتم تحويلى لمصحة نفسية حيث وضعونى فى حوض الاستحمام باستمرار. واستمريت فى إجابتى على الأصوات التى كانت توجد على الأقل بالنسبة لى. وذهبت من هذه المصحة إلى أخرى حيث أصبحت أكثر هدوءا. لم أتحدث إلى أى شخص ولكنى كنت على وعى إلى حد ما بكل ما يدور حولى باستثناء دقائق نوبات الهياج أو الشعور بالذنب. وسقطت مرة أخرى فريسة

للامبالاة التامة. كان العالم مثل الرسوم المتحركة التى تتحرك بدون مشاركة منى. وعندما أصروا على أن أجيب على أسئلتهم بذلت مجهود كبير جدا لكى أتعاون معهم. ولكنى كنت إذا نجحت استحضار بعض الجمل، أيقظ الجهد والمعاناة التى ابذلها للتعاون معهم العدائية والهياج ضد الآخرين. وتتغلب على بعدها قوى عدائية لا حدود لها وشعور بالذنب وأظل اصرخ لساعات. وشيئا فشيئا عدت مرة أخرى إلى عالم الضلالات الكهربى والمعدنى.

١٠- أول ثنائي لي (القرد الصغير)

X: My First Double: The Little Monkey

مرت فترة نادرا كنت لا أرى فيها ماما، بعدها أخذتنى معها إلى جنيف وأودعتنى فى بيت ممرضة وهناك كانت تأتى يوميا لترانى.

ولكنها تركتنى وحيدة فى منزل غير مألوف لى لمدة ثلاثة أسابيع وذهبت فى رحلة. لم أكن أكل إلا نادرا حيث أن كل شىء كان ممنوعا. كان النظام يمنعنى من تناول أى شىء به ملح أو سكر. كنت اشرب كميات كبيرة من الماء وأتناول السبانخ لأنها خضراء وهى إحدى نباتات الأرض.

لم اعد اسمع صوت أنتيبول بعد أن تركت المستشفى. كنت أقول اسمع لأننى لم اعرف كلمة أخرى تصف انطباع السمع الحقيقى لشىء غير مرئى يقف فى زاوية من الغرفة ويقول أشياء مزعجة التى تضطرنى للإجابة عنها ولكنى لم اسمع هذه الصوت فعليا. وفى هذا الوقت لم يزعجنى أى شىء من هذا القبيل. وبدلا من هذا كانت صحراء الجليد التى بداخلى تزداد اتساعا لتكون بلا حدود، دولة العزلة واليأس التام.

أمضيت أيامى جالسة على كرسى أحدق فى بقعة ما أو أستريح فى الحديقة تحت أشعة الشمس الساطعة ولا يتحرك سوى العشب فى

الأرض وأشعة الشمس من حولى. أحيانا كنت اركض فى الطريق واجد صعوبة كبيرة فى العودة إلى المنزل مرة أخرى.

وأخيرا عادت ماما وكنت أراها كل يوم تقريبا. وكنت سعيدة جدا بعودتها لأننى كنت اشعر بالوحدة الشديدة وبسبب دوافع إيذاء نفسى أو ضرب راسى فى الحائط أو عض نفسى أو تشويه نفسى.

أحضرت ماما هدية لى وهى دمية لقرد من الصوف الذى خفت منه فى أول مرة رأيته. وتوجست خوفا من أن يؤذينى عندما رفع يديه لأعلى، وبعدها بدا عليه تعبير حزين بشكل صادم. وبشكل غريب فى هذه اللحظة شعرت بدافع غريب أن اضرب نفسى. أدركت تماما أن يداى هى من تضربنى إلا إننى كنت متأكدة أن القرد هو الذى يهاجمنى. ومع ذلك لم اعرف وقتئذ أن هذا القرد هو رمز لى فى الحقيقة.

وقلت لنفسى أنا أنا وهو هو، ولا توجد أى علاقة بيننا، وعلى الرغم من هذه الحيرة حول أى منا متكامل بالنسبة للأخر. فقد كان يعانى من نفس مشكلاتى وأكثر من ذلك فهو يريد أن يؤذينى ويدمرنى. وكنت خائفة منه ولم استطع معاقبته على هذا لأننى كنت أدرك أن هذا ليس خطأه.

وعندما سردت لماما مخاوفى، فعلت شيئا عجيبا فقد أخذت يدين القرد وأنزلتهم حول ركبتيه الصغيرتين وقالت قرد ماما الصغير، ماما

تطلب منك دائما أن تبقى ذراعيك بالأسفل حتى تستريح رينيه. ورينيه لن تكون خائفة منك، هل تفهمنى؟. ووافق القرد الصغير على هذا ورأيت هذا فى عينيه. وكانت سعادتى لا توصف، وسعدت أن جعلته ماما فى هذا الوضع. ومن هذه اللحظة تركتنى دوافع إيذاء نفسى بشكل مفاجئ.

وكنت احرص دائما على أن أرى القرد وذراعيه للأسفل. وعندما كنت أرهم بالمصادفة لآعلى، كنت اضطر لضرب نفسى لأنه يتمنى ذلك. ثم أسرع إليه وأنزلهم للأسفل ويعود كل شىء جيدا مرة أخرى.

١١- معجزة التفاح

XI: The Miracle of the Apples

كان القرد حزينا جدا لأنه لا يجد ما يأكله، كل شيء كان محرم عليه ماعدا التفاح والسبانخ. لذا كنت اذهب للحديقة واقطف تفاحة أو اثنتان من الشجرة والتهمهم بسرعة. ولم اشعر بالذنب لأننى اخذ هذا التفاح، لأن هذه الشجرة كانت ضمن حدود دولتى أو ارض التبت كما أطلقت عليها، وكنت أنا الملكة المتوجة عليها. وكنت اعلم تماما إننى أعيش فى دولة صحراوية ومنعزلة وصخرية وأيضا غير واقعية ولم يكن لدى أى حق غير الأكل من شجرة التفاح. وعلى الرغم من هذه الشجرة فكنت اشعر بالهجر والتعاسة وانه ليس لدى أى حق فى أكل التفاح وما عدا ذلك فالكل كان محرم وممنوع.

أحضرت ماما لى بضع كليوات من التفاح السحرى، ولكننى لم استطع أن المسهم لأنه غير مسموح لى إلا بالأكل من التفاح المتدلى من شجرة ماما. وكم أسعدنى أن تعطينى ماما تفاح، وأسميته تفاح حقيقى.

ولكن هيهات فماما لم تستطع فهم ما أريده. واندهشت وقالت لى أليس كل التفاح الذى احضره واقعى وحقيقى؟ لماذا لم تأكليه؟. وأزعجتنى كلماتها وابتعدت عنها أكثر وأكثر، ولم يعد لدى أى تواصل

معها إلا عندما أخذت القرد الصغير بين ذراعيها وتحدثت معه، وكانت تفعل هذه لتشعرنى بالارتياح.

كنت اشعر بحزن شديد وأننى أصبحت اصغر. كان النظام يريد أن يقلصنى حتى أتحول للاشىء، حتى أننى تضاءلت فى العمر والجسم واكتشفت أن عمرى أصبح تسعة قرون وهذا معناه إننى لم أولد بعد. ولهذا لم اشعر أن تسعة قرون قد جعلتنى اكبر سنا ولحد ما فقد شعرت بالعكس.

وتزايد شعورى بالذنب أكثر وأكثر، وكانت عقوبتى أن تتحول أظافرى لتكون كمخالب القط. وكان لدى خوف مريع من يدى واقتناع إننى سأتحول إلى قطة جائعة تتجول فى المقابر ومجبرة على التهام بقايا الجثث. وعدت ثانية لأصبح تحت مراقبة رئيس النظام، أنتيبول، الذى يهاجمنى بكل سخرية وتهكم، وقد اتخذ موقعه أخيرا بالقرب من الدولاب فى الركن الأيمن من الغرفة. وتعالت الأصوات الساخرة منى قائلة أه أه أيها الكائن البائس، كلى ثم كلى وكلى فقط ثم زيدى من هذا الطعام. وظلوا يدفعونى لمزيد من الأكل ولأننى اعرف أن هذا محرم على وأننى سوف أعاقب بشدة لو أننى أطعت ما يقولونه لى.

وفى هذه الأوقات كان لأذنى دورا فى سماع هذه الأصوات ولم يحدث هذا من قبل عندما بدأت أرد على هذه الأصوات من غير أى استثارة سمعية. الآن وعلى الرغم من إننى أميزهم بسهولة عن الأصوات الواقعية والحقيقية، كنت أقول إننى اسمع صداها مدوى حقا

فى غرفتى. وبعدها رأيت كل شىء فى فوضى من اللاواقعية المريعة وكان كل شىء مقطوع وواضح تحت الضوء البارد المتوهج.

وفقدت تواصلى مع ماما أكثر مما سبق وأصبحت أتجنبها وأتناسى زيارتها رغما عنى. لان ماما كانت الوحيدة التى ظللت أتشبث بها فى أوقات يأسى.

ذات يوم ذهبت إلى الشجرة وقطفت تفاحة خضراء، وكنت على وشك أن ارفعها إلى فمى عندما جاءت زوجة الفلاح الذى يملك هذه الحديقة وقالت لى أه اها: أنا كنت أراقبك منذ فترة طويلة، هذه ليست أول مرة أراك تأخذين التفاح من شجرتى. لابد أن تتوقفى وإلا.... وبدون أن تكمل كلماتها كنت قد أسقطت التفاحة وهربت إلى غرفتى وأقفلت الباب وسددته بقطع الأثاث.

وامتلئت رعبا وفزعا عند سماعى هذه الكلمات، وكان لدى شعور مختلط من العار والغضب والخيانة وفوق كل هذا حمل ثقيل من اللوم الذى يتصارع فى قلبى. وقمت بالاحتجاج فى أرضية غرفتى فى أكثر جزء مظلم فيها، وبكيت صرخت من عذابى الشديد. وبدا لى أن مصيبة مروعة قد حطت فوق رأسى. ولأننى كنت مهجورة ومجردة من كل شىء اقتنعت أن هناك سلطة نافذة ترغب فى قتلى. فقد اخذ منى حالا كل ما لدى، ووضع مكانه شعورى بالذنب الشديد.

وأكملت بكائى وأنا اصرخ أعطينى تفاحاتى، أعطينى تفاحاتى،

رينيه جائعة، أعطينى تفاحاتى، رينيه جائعة. وتراكم غضبى ضد زوجة الفلاح الشريرة التى أخذت منى حقى فى الحياة. ولكنها فعلت هذا لقد سرقتنى، لابد أنها على حق وأننى على خطأ فى رغبتى فى هذا التفاح. وكلما زادت رغبتى فى التفاح وصراخى وطلبى من التفاح العودة، ازداد شعورى بالذنب. لمدة ساعات طويلة بكيت وصرخت وارتعشت كلما طرق احد الباب أو نادى على للخروج، كنت متأكدة من أن البوليس سيأتى ليأخذنى ويعاقبنى بالموت. وفى زاوية بعيدة من الغرفة وكانت الأصوات الساخرة والقاسية تعذبنى بالتهديدات بالعقاب والتشرد. ولسوء حظى فقد رفع القرد ذراعيه مهددة بقتلى.

ونجحت الممرضة بعد فترة فى الدخول إلى الغرفة من النافذة الخلفية وفتحت الباب، وأعطتنى حقنة مهدئة ووضعتنى فى السرير ونمت على الفور.

وفى اليوم التالى تجدد فزعى مرة أخرى مما حدث أمس وارتديت ملابسى بسرعة وهربت من المستشفى وجريت لا ادرى أين اذهب. ظللت امشى لساعات وعبرت الحدود وتسلقت ممر الجبل. كنا فى فصل الخريف وكان الضباب يخيم على المكان، وفى الطريق غمرتنى لامبالاة أسعدتنى.

وواصلت تسلقى لأعلى واعلى وارتفعت لحوالى آلاف الأمتار. وهناك بقيت متعبة وجائعة ومرهقة. كان رأسى مفرغا ولم أفكر فى اى

شيء غير إلقاء نفسى من فوق الجبل. وفجأة ظهرت امرأة وسألتنى من أين أتيت والى أين أنا ذاهبة وان كنت ابحث عن فندق أو أى شىء أخر. ولم تصدق أننى قطعت كل هذه المسافة من جنيف إلى هنا على قدمى. وأمام إصرارها أخبرتها أننى لا املك أى مال ولا أستطيع أن اذهب إلى أى فندق. ولابد أن شيئا ما جعلها تندهش وتطلب منى العودة إلى بيتى، إلى ماما. وساعدتنى كى أقف ورافقتنى لمدة ساعتين فى طريق العودة.

ظللت امشى من التاسعة صباحا حتى المساء وقد أنهكت قواى تماما، وجرحت قدماى وكنت انزف ولكننى أكملت السير مثل الإنسان الآلى. وذهبت لغرفتى وقد شارفت على فقدان الوعى من التعب الذى حل بى، وقد وجدت ماما فى شدة الغضب. وخلعت ملابسى وحممتنى بماء دافئ ولم تتركنى إلا بعد أن نمت وأخبرتها بقصة زوجة الفلاح وما فعلته معى.

وفى الصباح التالى أبقانى الإرهاق فى سريرى معظم اليوم. ولكن فى المساء أجبرتنى الممرضة على النزول لتناول للعشاء بدلا من إحضاره لى كالعادة. ونزلت وتناولت القليل من الطعام. ولكن النزول للعشاء والاندماج مع المرضى كان فوق طاقتى. واختلطت بداخلى ثورة من الغضب والقلق والشعور بالذنب الذى لا نهاية له لأننى تجرأت وأكلت. ووصلت رغبتى فى التفاح منتهاها ولم أدرك ما الذى سيحل

بى بعد ذلك. وفى هذه اللحظة كنت متأكدة أننى لو لم أتناول التفاح أكثر من هذا بالإضافة إلى إجبارى على النزول إلى طاولة الطعام وإرغامى على التفاعل الاجتماعى مع الآخرين فأننى حتما لن أستطيع الاستمرار فى هذه الحياة.

وفى هذه الحالة من الارتباك والتعجب والحزن الصامت، وفى حوالى الساعة التاسعة مساءا ركضت على قدماى إلى بيت ماما. وترددت الأصوات الساخرة على مسمعى وأخذت تهددنى بالموت. وامتلئت خوفا وفزعا من يدى التى تشبه مخالب القطة. وفى نفس الوقت أصبحت اصغر وأثقلتنى التسعة قرون وملأتنى بالتعاسة. واجتاحت روحى عاصفة من الرعب والاغتراب واللاواقعية والهجر اليائس.

كانت الأصوات تصرخ فى رأسى وتدفعنى أن القى بنفسى فى النهر، ولكنى قاومتها بكل قوتى وركضت إلى ماما. وفى النهاية وصلت لها وارتميت فى حضنها ابكى وأنا أتلعثم لقد جعلونى أتناول الطعام، لقد اجبرونى على هذا، ووبختنى زوجة الفلاح، لم يعد لدى أى شىء بعد الآن، ليس لدى إلا التفاح، أنا سأموت.

وحاولت ماما أن تهدئنى بعطفها ولكن بلا جدوى. قالت لى لماذا؟، لماذا لم تأكلى التفاح الذى أحضرته لك؟، وأجبتها لا أستطيع أن أتناوله ماما. وبينما بينما أنا اشعر بغضب عارم لان ماما تصر وتريد أن

تجبرنى على تناول الطعام، سقطت عينى على صدرها وعندما سألتنى لكن لماذا لا ترغبين بالتفاح الذى اشتريته لك؟. وقتها عرفت ما كنت أصبو إليه من دون أى أمل وكنت قادرة على إظهاره. وقلت لها لان التفاح الذى اشتريته هو طعام الكبار، وأنا أريد تفاح حقيقى، تفاح ماما، مثل هذا وأشرت إلى صدر ماما.

وقامت ماما على الفور لتحضر لى تفاحة رائعة وقطعتها شرائح وأعطتنى واحدة قائلة الآن ماما ستطعم صغيرتها رينيه. حان الوقت لتشربى لبن تفاحات ماما، ووضعتها فى فمى وعينى مغمضة ورأسى على صدرها. أكلتها أو بالاحرى شربت هذا اللبن الخاص بى. وسرت إلى قلبى سعادة غامرة. واختفى كل حزنى، هذه العاصفة التى هزت أوصالى منذ لحظة واستقر مكانها الهدوء والسكينة، لم يعد شىء يزعجنى ولم أفكر فى أى شىء أخر. كنت منغمسة فى سعادة لا نهائية، سعادة الطفل الصغير ولم اعرف سبب كل هذه السعادة.

وعندما انتهيت من وجبتى من التفاح وأخبرتنى ماما فى الصباح التالى أننى أستطيع الحصول على وجبة ثانية وأنها سوف تخبر الممرضة بهذا وسوف تأتى هى بنفسها لتطعمنى التفاح.

وتركتنى الممرضة التى كانت تأتى لتفقد حالتى وعندما كنت بالخارج عرفت أن إدراكى للأشياء قد تغير بالكامل. وبدلا من الفضاء اللامحدود وغير الواقعى حيث كل شىء مقطوع ومنعزل وعارى، فقد

رأيت الواقع أخيرا. لأول مرة أرى الواقع الرائع ولم يعد الناس الذين صادفتهم وتعاملت معهم أليين أو أشباح يتحركون من حولى ويلفون بدون أى داعى. كانوا هذه المرة رجال ونساء كل منهم له شخصيته ومميزاته الفردية، وبالتالى كانت الأشياء أيضا مختلفة عن ذى قبل. كانت أشياء مفيدة لديها حس وقادرة على إضفاء السعادة. وكانت هناك عربة بها مسند أستريح عليه فى طريق العودة إلى المستشفى. وباندهاش الذى يرى المعجزة رأيت بعينى كل شيء فى طريقى. وأخذت اردد هذا هو، هذا هو. وكنت فى الحقيقة أقول هذا هو- الواقع.

وعندما دخلت غرفتى بعد وصولى المستشفى، لم تكن غرفتى مجرد غرفة معيشة عادية وإنما غرفة دافئة وواقعية ومتعاطفة. واندهشت بشدة عندما رأيت الممرضة لأول مرة تعيد ترتيب الغرفة. يا لها من سعادة تستطيع التأثير على الأشياء، لأول مرة أحببت الرغبة فى التغيير. وسابقا تحملت الثبات وعدم تغيير حتى لابسط الأشياء. الآن اهتممت أن يكون كل شيء فى موضعه ومنظم ومرتب، وفى هذه الليلة نمت نوما هنيئا.

وبزغ فجر يوم جديد. كنت سعيدة أو بمعنى اصح منغمسة فى السعادة. فقد كنت مثل الكتكوت الذى خرج للتو من البيضة. أعطتنى الممرضة قطعة من التفاح الذى قامت ماما بتقطيعه وشربتها وأنا امسك بتفاحة كبيرة أعطتها لى ماما بعد أن ضمتها لصدرها. كانت هذه التفاحة مقدسة مثل صدر ماما. لاحقا وصلت ماما وأكلت أو بالاحرى

شربت لبن التفاحة ورأسى على صدرها وتغمرنى سعادة لا توصف.

أدركت فى اليوم التالى أن الأصوات الساخرة قد اختفت تماما وخاصة أننى لم أخاطر بتحولى إلى قطة. واستمتعت بكل شىء رايته وكل شىء لمسته. وللمرة الأولى كنت على صلة حقيقية بالواقع. وتغيرت ماما أيضا فى عينى، كنت من قبل أراها مثل التمثال الذى يتأمله الناس على الرغم من انه غير واقعى ومصطنع، ولكن من هذه اللحظة وصاعدا أصبحت ماما دافئة ومفعمة بالحيوية وتعلقت بها بشدة. كان لدى رغبة عارمة للبقاء بالقرب منها وان احتفظ بهذا التواصل الرائع.

ولكنه كان تواصل شفهى (فموى) فقط، بمعنى أنها كانت ماما- المغذية التى أستطيع التواصل معها بمنتهى الحب! ولم اكترث لأى شىء أخر غير تفاحاتى.

وخلال الأيام التالية كان لدى عدة توجسات لان ماما أرادت أن تجعلنى أتناول الطعام مثل الآخرين، وكان هذا يسبب لى فقدان توازنى. وعلى الرغم من أن عالمى كان ينقلب رأسا على عقب ويصبح مائلا وتخللنى قلق واضطراب لا يوصف. ولحسن الحظ فهمت ماما أننى أستطيع التقدم ولكن ببطء. وبعدها أصبحت أتناول التفاح المخفوق يسبقه شريحة تفاح وأخيرا استطعت أن أتناول تفاحة غير مقشرة.

وبالتقدم استطعت تناول اللبن الحقيقى وحساء الشعير أحيانا،

حتى هذا اليوم الذى كرهت فيه اللبن. ولكن فى هذا الوقت بدا تماما انه من الطبيعى أن اشرب اللبن.

وكانت هناك تفاحتان دائما بجانب رف الموقد أعطتهما ماما لى كى تحميني، على الأقل فى أوقات القلق والاضطراب الشديد كنت اجرى إليهما وفى لحظتها كنت اشعر بالأمان مرة أخرى. شعرت أننى إنسانة جديدة وسعيدة جدا لأننى استطعت غزل بعض الأشياء الصغيرة من ليف النخيل خاصة وأننى سأهديهم لماما.

١٢- تعلمت معرفة جسدي

XII: I Learn To Know My Body

فى وقت لاحق، تضأل اهتمامى بتغذية الأم وركزت اهتمامى بدلا على جسمى ولكننى لم أجرؤ على عدم الاهتمام به اقله لأنه يغطنى بالذنب ولحد ما اندهشت ماما لمعرفة أن هذا الشعور عميق بداخلى وأننى أريد أن أكون نظيفة وجميلة ومنسقة ولكنى ليس لدى الحق فى هذا.

وأحضرت ماما صابون خفيف الرائحة وأعطت الممرضة أوامر صارمة أن أستحم كل يوم. وكانت حاضرة فى واحده أو مرتين من الحمام وقالت ماما تريد رينيه أن تكون نظيفة جدا ماما تريد رينيه أن تستحم كل يوم لتصبح هكذا. ما هذا الإشباع أن اجلس فى هذه المياه الدافئة المعطرة الجميلة كأنما كنت بين ذراعى ماما. بالمثل لم تكن ميزة الاستحمام بهذا الصابون أو الاستحمام بشكل عام لم يكن لى. ولكنى كنت أوافق على أن تحمنى الممرضة لان فى هذه الظروف لم أكن مسئولة عن هذه السعادة التى شعرت بها لكونى نظيفة.

ولتعاستى لم تفهم ماما هذا وان الشعور بالذنب سو يجرفنى لحظة أخذ المبادرة فى الإحساس بهذه السعادة بنفسى. وقالت شيئا مريعا حممى رينيه عندما تريد هى ذلك، هى تحب ذلك، أليس كذلك رينيه؟.

ونشأ بداخلي غضب شديد ضد ماما، كيف لها أن تفعل بى شيء كهذا، أى شيء أكثر خجلا لتعلن صراحة أن رينيه هى التى تريد الاستحمام! وكأن اللوم الذى رافق هذه الكلمات أنفجر وقتيا، ورفضت الاستحمام بشدة.

واضطرب وتمزق التواصل بينى وبين ماما، فى هذه اللحظة اختفى الواقع الرائع ليحل محله المشهد القديم السينمائى. وسحقتنى المسئولية التى وضعتها ماما على عاتقى وجرحنى بعمق أنها قالت هذا بصوت عالى أمام الممرضة أننى استمتعت بالاستحمام وأريده على الرغم من رفضى الاستحمام والبقاء لحد ما سلبية عندما تحممنى الممرضة. واستطعت بعدها أن أسيطر قليلا على شعورى غير المحتمل بالذنب.

وكنتيجة لهذه الفجوة فى التواصل، اقتربت أكثر من الممرضة التى كانت تعتنى بى والتى أحببتها كثيرا على الرغم من الدوافع العدائية التى كانت ضدها من قبل والتى تغيرت فجأة لسبب غير واضح.

١٣- مرضي (ماما) الآخرين وانطلاق كل قواي التدميرية الذاتية

XIII: Mamas Other Patients; ALL My Self - Destructive Energies Are Unleashed

مرت الشهور بعدها وفى يوم ما لم تأتى ممرضتى كالعادة. لقد أخذت أجازة لتسبب لى صدمه رهيبة باختفائها وبكيت طوال الليلة فى غضب وحزن وتساقط عالمى بأكمله إلى قطع وتحطم تماما. كان غيابها لا يحتمل ومعاناتى شديدة وبعدها غضبت من ماما أيضا لأنها سمحت لها بالمغادرة. على الرغم من انه فى هذا الوقت ذهبت لتمضية بضعة أسابيع فى بيت ماما إلا إننى شعرت بالهجر والوحدة لان الممرضة التى كانت تطعمنى وتلبسنى وتجعلنى أعمل ولو قليلا من الوقت قد سافرت.

وبعد غياب الممرضة بوقت قليل اكتشفت لأول مره أن ماما لديها فى الحقيقة مرضى آخرين وان لديها زوج وهو الذى أطلقت عليه اسم (الشخصية المسرحية الكبرى). كنت أظل لحد ما بمفردى أمضى الأيام جالسة على كرسى وعينى تحدق لأسفل منتظرة أن تنتهى ماما من مقابلة مرضها. لم أكن احتمل إعتقاد أنها تعطى جزء كبير من وقتها للغرباء وتتركنى وحيده مع النظام. كانت كل حركة مصدر ألم

حتى مجرد تغيير اتجاه نظرتى. وغرقت فى حزن عميق وانفجرت فى ثورة غضب ضد ماما بسبب مرضاها الآخرين. لم أجرؤ على كشف عدائيتى بشكل صريح. كانت ماما ملكة قوية ويجب أن أتجنب الوقوف ضدها، هذه الملكة كانت ظالمة لأنها تعطى لبنها الغالى المقدس لغير المستحقين الذين لم تكن حاجاتهم ملحة مثل حاجتى.

وأدركت من خلال محادثتها الشخصية والتليفونية لهم أن المرضى الذين جاءوا لماما يتمتعون بالحرية فى الحياة التى لم تكن من حقى وكانوا يذهبون لدور السينما والحفلات بينما أنا - أعانى وحدى الأصوات الساخرة أو أبقى ساكنة متجمدة فى كرسى.

وقل إدراكى لماما أكثر وأكثر وعرفت بدلا منها الملكة المتحكمة التى هى مصدر الحياة والسعادة ولكنه على الرغم من ذلك فهى مصدر الحرمان أيضا، لأنها تستطيع عدم اخذ ما أعطته من قبل. وكتبت لها عدة شكاوى أو بالاحرى توسلات لأبين لها ظلمها لملكة أرض التبت الصغيرة كما كنت أطلق على نفسى.

ومع كل هذا صدقت أن الملكة ستفهمنى وتمنحنى اللبن الغالى ولكن هيهات فهى لم تستطع فهم لغتى، اللغة التى أعتدت أن أتحدث بها مع نفسى وهى عبارة عن تجميع الكلمات غير المترابطة وبعض الكلمات الأخرى من اخترعى أنا حيث أننى سلبت ميزة كتابة الكلمات الحقيقية. وبالتأكيد فى مثل هذه الحالة أصبحت الملكة محقة فى معاقبتى لأن قائمة الشكاوى كانت مليئة بالاعتراض والاحتجاج.

عندما كتبتها بهذه اللغة كانت موجهة لماما صاحبة التفاح التى أحبتنى وأحببتها ولكنها لم تفهمنى فقد منعتها الملكة المريعة من إعطائى التفاح.

خلال هذه الفترة تم وضعى فى مصحة نفسية مرتين حيث لم أتحدث إلى أى شخص وعدت لماما أكثر صمتا وأكثر شعورا بالذنب. وأظهرت الملكة الغضب عندما حاولت أن استعيد ماما.

ذات يوم بعد أن حاولت ارتداء جميع الأحذية التى عثرت عليها وعلقتهم جميعا على دولاب الملابس ومقص مفتوح لأعلى. واعتزمت أن اعبر بهذا لماما عن شعورى بالضيق وحقيقة أنها يجب أن تعتنى بى لأننى عندى أوامر بالرحيل. كانت الأحذية تمثل الرحيل والغضب وسلسلة من القلق من الضلالات والمقص المفتوح ليعبر لماما عن الغضب والرغبة فى إنهاء هذا الصراع ولكن الملكة لاحظت أن هذا التكوين خطير جدا وأخذته بعيدا عنى.

وأخيرا ذات يوما أثناء الغداء رفضت تناول الطعام لأننى كنت حزينة وغاضبة من المرضى الآخرين أكثر من أى وقت مضى وبدلا من أن تصر ماما على إطعامى وتعطينى الحق لان أتناول الطعام فقالت يمكن أن تتركى الطعام إذا كنتى لا تريدين أن تأكلى. وكان هذا يعنى لى أنا لا أريدك أن تأكلى وقمت من على الطاولة وأسرعت إلى غرفتى أبكى فى يأس شديد.

وجاءت ماما تهدئنى ولكنى بالكاد عرفتها. وفى المساء شعرت بغضب شديد ضد نفسى. وكرهت نفسى لدرجة استحقاقى الموت. وقد انتحبت فى كراهية وذنب وكنت اضرب نفسى بعنف. كنت مضطربة تماما. وصرخت الأصوات لى أنت حقيرة وليس لديك الحق لان تعيشين، أنت مجرمة، أنت ارتكبتى جريمة قابيل. جاءت الطبيبة وأعطتنى جرعتان من الهيبودرميس الفعال ولكن فى الصباح بدأت الأصوات من جديد ولم تقل حدة إحساسى بالذنب. ونشطت كل قواى التدميرية الذاتية مرة ثانية، واخذت تقذف بنفسها فى وجهى محاولة تدميرى تماما. ولم يستطع أى شىء أن يوقفهالأن ماما لم ترفض فقط أن تطعمنى كما كانت تطعم الآخرين ولكنها حرمتنى من الأكل، معلنة صراحة أنها لا تحبنى وأنها رفضتنى.

وأخذونى مجددا إلى المستشفى ووضعونى فى حوض الاستحمام باستمرار وتحرسنى ممرضة التى كانت تثبت ذراعى من خلفى حتى لا اجرح نفسى. واستمرت كراهيتى لنفسى فى الازدياد. وتمنيت أن أموت لأننى استحق الموت.

رأيت أمام عينى بقرة سمينة تقترب منى، كانت هذه ماما وكان خوفى كبيرا ومروعا. وكنت اسمع الأصوات تعوى وتصرخ بوجهى وتسخر منى وأخذت اصرخ أنا أيضا فى وجه الذنب الذى يعذبنى بقسوة، قائلة أرأيتم ماذا فعلتم، انتم أيهم اللصوص السفلة، أيها الغيلان التى تمتص كل شىء، أرأيتم ماذا فعلتم؟!. كان هؤلاء هم مرضى

ماما الآخرين الذين هم سبب معاناتى وشقائى ولعنتى.

وتحت تأثير الاستحمام والتعب سقطت فى حالة من الذهول والإعياء فى سريرى، لا أتحرك ولا أبالى لأى شىء من حولى. واستنتج الأطباء والممرضات أن السبب أننى لا اعرف احد هناك ولكن لم يكن هذا هو السبب. وجعلتنى اللامبالاة الشديدة لا ابدى أى إشارة أو اهتمام لأى شخص. ولكن عندما رأيت ماما ثانية أدركت أنها هى ولاحظت أنها تبكى. شعرت بشعور غريب نحوها وأردت أن أقول شيئا ولكن كل ما استطعت قوله هو أنا- البيت- ماما ماما.

فهمت ماما رغبتى البائسة فى العودة معها وأخذتنى معها إلى البيت. وعندما وصلنا إلى البيت شعرت بالخلاص والتحرر. وعلى الرغم من إننى كنت أتناول الطعام اصطناعيا إلا إننى طلبت الطعام قائلة خبز، خبز، خبز وحاولت أن أتناول منه قليلا.

ولمدة عام تقريبا أمضيته جزئيا مع ماما وغالبا فى المستشفى. استمرت لدى حالة التخشب فكنت أنام وركبتى لأعلى ورأسى باتجاه الحائط وشعرى يغطى وجهى كى لا أرى احد. ومن وقت لأخر كانت تنتابنى نوبات الشعور بالذنب لكسر رتابة هذه الأيام. وفى خيالى كانت هناك أطلال مدينة كاملة مفتتة الى جزئيات صغيرة بسببى أنا وبسبب جريمتى خطيئة قابيل.

ذات يوم بينما كنت اصرخ، أحضرت ماما لى بعض من الأيس

كـريم ووضـعت منه ملعـقـة فى فـمـى وهى تقـول خـذى بعض الثلج الأبيض وسـوف يجعل رينيه نقـيـة وطاهرة. عندما تعطى مامـا الثلج لرينيـه سوف تختـفى الجريمة وتصـبح رينيه نقـيـة وبرئية من جديد. وبواسطة هذا الثلج اختفى شعورى بعدم استحقاقى الحياة وأصبحت أكثر شجاعـة وإقداما على التحرك من مكانى قليلا. على الرغم من أن هذه الحركة استحضرت الرعب فى داخلى من جديد.

جاءت إحدى أخواتى لزيارتى ولطمتها لطمة صغيرة أمام مـامـا ورفعت ذراعى من دون أن المسها، ولكن هذا اغضب مـامـا كثيرا وقالت لأختـى اذهبى، ارحلى بسرعـة قبل أن تـضربك رينيـه. كـانـت كلمات ماما تعنى الحماية لأختى والرفض لفعلى هذا. وعـادت عقدة الذنب من جديد لتهاجمنى والأصوات التى تتـهمنى بالشر الأكـبر. ذنب كبير لم استطع تـحمله. وعـرضت مـامـا على الأيس كـريم مـرة أخرى ولكنى رفضـتـه بشـدة هذه المرة لأننى لا اسـتـحـقـه. ولكن مـامـا أصـرت على إطعـامـى وهذا جـدد بـداخلى الأمل فى الصـفح والغـفران. ولكن نـتـيـجـة لرفضى المتكرر فقد أبعدت هذه اليد الممدودة بالغفران. هل من الممكن أن تدرك مـدى توسلاتـى النابضـة فى صـدرى لتعبر عن مدى رغبتـى فى العفو والصفح؟. لو أن مـامـا فى هذه اللحظة وضعت الأيس كريم فى فـمـى كنت سأنجـو من الرعب اللاحق. ولكنهـا لم تشك فى رفـضـى. كـانت حـاجتـى للثلج الأبيض لا توصـف ولكنهـا لم ترى غـيـر مقـاومتـى الشديدة ونوبات الهياج الشديدة.

١٤- انشغال (ماما) مع الصغير ايزيكل

كنت موجودة فى أول مرة تحمل ماما دمية بين ذراعيها، دمية طفل أسميتها ايزيكل. حيث قامت بتغطيتها وتقبيلها بحنان ووضعتها فى مهدها. فى البداية كنت اكتفى بمجرد رؤيتها تحملها، وشعرت فى لحظتها بدهشة كبيرة أن ايزيكل يحب أن تعامله ماما برقة وحنان. وتوقعت فى أى لحظة أن تلقى ماما ايزيكل لأننى لا استحق الحياة لأنه كان رمز لى. واستولى على عقلى حيرة وتوتر على ايزيكل وعلى نفسى. وكنت عندما أرى ماما تمسك بايزيكل ارتعش خوفا من أن تسقطه بقسوة فى سريره، ولو أنها فعلت هذا لان لدى لدى شعور غريب أننى من يعامل بهذه القسوة وليس الدمية.

يوما واتتنى الشجاعة عندما كان ايزيكل بين ذراعى ماما ودفعت رأسه فى صدر ماما لاختبر مدى حقى فى الحياة. وفى هذه اللحظة ضمته ماما وأخذت تهدهده. وفعلت هذا عدة مرات فى اليوم وأنا ارتقب بحذر أن تنسى، ولكن ماما لم تنسى وبدأت أجرؤ على أن أعيش مثل الآخرين.

وتضاءلت لدى دوافع تدمير الذات بشكل ملحوظ، وبدلا من قضاء اليوم فى السرير ورأسى تحت الغطاء، أخذت انظر لنفسى واهتم بكل شىء يتعلق بايزيكل. وبعد أن كنت ارفض الطعام اقتنعت به

وبدأت فى تناوله. وبعد فترة من ملاحظة كيف أن ماما تحمم ايزيكل ملئتنى السعادة وأصبحت أنا أيضا استمتع بالاستحمام. ولان ماما مهتمة بالاعتناء بايزيكل فقد كان هذا يعطينى حق الحياة. وبالتدريج خرجت من الإهمال والتكاسل وأصبحت مهتمة أكثر بما تقوله ماما وما تفعله لايزيكل اهتمام جعلنى أكثر هدوءا. وعلى الرغم من استمتاعى بالاستحمام وتناول الطعام إلا أن أزمة الشعور بالذنب كانت مستمرة.

١٥- دخلت جسم (ماما) وولدت من جديد في ايزيكل

أصبت بالتهاب كلوى حاد داهمنى بآلام جسدية رهيبة حاكت آلام جل أزماتى النفسية. كنت على أمل أن يخف شعورى بالذنب ولكن جاءت هذه الآم لتضاعف شعورى به وتؤكد أننى أستحق معاناة التذنيب واللوم. وعندما كنت فى أمس الحاجة إلى ماما أصابها الإعياء الشديد ولعدة أسابيع كنت فى رعاية الممرضة.

و طبيعيا لم أفهم أن مرض ماما منعها من الاعتناء بى واعتبرتها مقصرة فى حقى وأن عدم حضورها لمجالسة ايزيكل هو أقوى دليل على إهمالها لى وتقصيرها تجاهى، وإننى لن استمر فى الحياة. وفى لحظتها عادت من جديد ميولى لتدمير الذات والأصوات المنتظرة بطاقة جديدة.

ذبل جسدى وانزوت روحى وأصبح أملى الوحيد هو استعادة جسم ماما، الجنة التى حرمت منها حيث إنها لم تقبلنى.

أخيرا انتهى المرض الجسدى ولكن ميول التدمير الذاتى والأصوات بقيت ولم تنتهى. ذات يوم عندما كانت ماما بعيدة وكنت أنا أتعذب بواسطة جاءت إلى وأعلنت عن نيتها فى التخلص من هذه الأصوات نهائيا، وبالتالى تجعلنى قادرة على النوم مثل ايزيكل وموسى. حقنتنى ماما بعقار منوم، وشعرت بعد قليل بنفسى تنزلق إلى عالم من السلام الرائع. كل شىء فى الغرفة كان أخضر، أخضر مثل

البحر إلى حد ما مثلما كونى فى جسد ماما. غبت عن الوعى تماما وزالت آلامى، وبذلك قدمت لى ماما صنيعا عظيما دون نية منها أو قصد. وبالتالى اعتقدت أنها تريد أن تأخذنى إلى جسمها. وملأتنى راحة عارمة؛ كنت فى الجنة؛ كنت فى صدر الأم.

و من هذه اللحظة لم تهتز ثقتى فى ماما مرة أخرى وأحببتها كما لم أفعل من قبل. لأنها استقبلتنى فى نفسها، لأنها لبت أعز أمنياتى وملأتنى بالسعادة وأثبتت من دون شك أنها تحبنى، وأننى محبوبة. بعد ذلك فى أى وقت كانت تداهمنى الآلام أو تحاصرنى هذه الأصوات المضجرة كانت ماما تخلصنى منها بوخز خفيف بهذا العقار المنوم الذى يأخذنى إلى عالم ساحر مفعم بالسعادة والاسترخاء وينأى بى عن عالم الآلام والمعاناة.

و لكن عندما لا تكون هناك معاناة، كانت فرحتى الكبيرة هى النوم بسلام فى الضوء الأخضر، يدى فى يدى ماما وايزيكل على صدرها. استمر تواصلى مع ماما من غير أى انقطاع. صوتها الجميل وحده كان كفيلا بأن يخلصنى من هذه الأصوات ويصرف عن ذهنى أى أفكار أو ميول عدوانية تجاه الذات. وأكثر وأكثر فضلت البقاء بالقرب من ماما وليس بداخلها. لم أخاف من أى شىء منذ أن تركتنى أدخل إلى هذا العالم الساحر وقتما شئت.

استأنفت ماما رعايتها لايزيكل. وأنا، أنا أصبحت أكثر شجاعة فى قناعتى بحب ماما؛ أليست هى من أعطتنى الدليل الحتمى على

حبها؟ أخذ ايزيكل التغذية منها وأنا أيضا، ولكننى كنت فى أمس الحاجة لأن أطعم نفسى بنفسى رغبة فى الاستقلال والانفصال، ولكن سرعان ما تلاشت هذه الرغبة لدى عندما أشعر أنها لن تجلب لى سوى النبذ والعزلة.

على الرغم من ذلك رفضت ماما أن تدعنى أكل بمفردى، وهذا دليل أكيد على أنها لا تريد أن تتركنى أبدا وإنها تريد أن تغذينى. ازداد اعتقادى فى حبها لى قوة بمجرد أن اجترأت على إطعام نفسى وهى قريبة منى.

لاحقا أعطتنى ماما خطابا به بيان مفصل عما يجب أن أكله، طعام أعدته هى لى، حتى تكون بالقرب منى فى غيابها. وتكلمت عنها لنفسى وهذا ساعدنى جدا وكان الاستقلال المتزايد فى إطعام نفسى خطوة كبيرة فى اتجاه الواقع.

و منذ أن استقبلتنى ماما فى البحر (فى جسمها) تغير إدراكى للواقع إلى حد ما. وأصبحت ماما حرة مثلما كانت بعد التفاح دافئة ومفعمة بالحيوية. وحده اهتمامى أصبح محدد بهذه الأشياء التى كنت أشاركها مع ماما أو التى مرت بين يديها. مع ذلك كان ما رأيته واقعا جميلا. كانت ماما بالنسبة لى البقرة المعجزة ليست مثل أى بقرة فى أى شىء، تلك الحيوان التى نراها فى الأفلام أو الصور، ولكن شىء ما مختلف تماما؛ كائنة سماوية أمامها كنت مستعدة أن أركع فى تضرع

وخشوع. هذا بالتأكيد ما فعلته أمام حائط يحمل رسما يحاكى شكل بقرتى.

كانت كل اهتماماتى موجهة لماما. وعندما كنت أراها تلبس ايزيكل ملابسة تجرأت لأجد الاهتمام فى جسمى كلما أعجبت ماما أكثر به.

وكانت أعظم الإسهامات وأكثرها أهمية هى الوعى الذاتى المتزايد وتحررى من عقدة الذنب فى تقدير الذات، الذى كان سببه أسلوب ماما فى التحدث لى. لم أكن لأقبل ابدأ أن تتحدث معى بضمير المخاطب مثلا أن تقول أنت لديك جسم جميل، وكم أنت نظيفة. كان ذلك يثير فى نفسى غضب وقلق مدمر ضد ماما لأنها تنسب هذه الخطيئة لى بقولها أنتى، جسمك ولكن تشخيص جسمى بقول انه جسم جميل لأنه نظيف ومعطر كان ذلك يفصله عنى. ويصبح الجسم مستقل عنى ويشبه ايزيكل حيث أن ماما تنظفه وتجده جميلا وشيئا فشيئا مثل ماما استطعت أن احممه أنا أيضا لأننى كنت أقلد ماما كنت قادرة على فعل هذا. وأخيرا لأننى كنت لبعض الوقت افعل هذا مع ماما أصبحت قادرة على الاستحمام من غير ماما طالما كنت أتحدث إلى جسمى كما كانت تفعل ماما كى لا أتحمل مسئولية إعجابى به. بعد ذلك سمحت لنفسى بالقول جسمى، أنا استحم، أنا جميلة وتعلمت بمساعدة ماما أن أحب نفسى وان احقق تكامل الأنا لدى.

وإذا حاولت أن افعل شىء غير مرتبط بماما، كنت افقد الاهتمام

فورا وينشط من جديد عامل تدمير الذات. وبالتوازى تغير إدراكى للواقع فجأة، واتسعت الأشياء الدافئة والحية من حولى بشكل عجيب وتحولت إلى أشياء منفصلة ومنعزلة وبعيدة عن بعضها. وامتدت حولى دولة معدنية منعزلة غير محدودة ولا نهائية وفصل بينى وبين الناس حائط من الجليد.

وكلما تقدمت باتجاه الواقع كلما قلت هذه الضلالات وكان الفضل يرجع لعلاقتى الجيدة مع ماما. استطعت فى البداية أن أحافظ على التواصل مع ماما فقط عندما تنزل للمستوى الذى انا فيه. وكان أى جزء أخر من الحديث أو التواصل الاجتماعى من جانبها يبعدنى عن الواقع ولم استطع قبولها الا كجزء من العالم الخارجى. بعدها تدريجيا أصبحت مستقلة عنها، أولا من خلال تناول الطعام بنفسى ثم من خلال النظافة والعناية الشخصية. وأخيرا استطعت أن أفكر بطريقة مختلفة عن ماما بدون تعريض إدراك الواقع الواضح والشفاف للخطر.

١٦- أصبحت متكونة بشدة في الواقعية (الحقيقة) الرائعة

XVI: I Become Firmly Established in Wonderful Reality

وسرعان ما لاحظت أننى أحب ماما لذاتها وليس لحاجتى لامتلاكها. وعلى نحو متزايد فإن قطاعات كبيرة من شخصيتها امتزجت مع حبى لها. وتعرفت عليها أكثر أثناء المشى أو ركوب السيارة أو الذهاب إلى السينما. فى السابق كنت أراها متنكرة ولا أستطيع التعرف عليها عندما تبدأ التواصل الاجتماعى معى أو التحدث معى بلغة أخرى غير لغتى.

وتدريجيا تم إعادة بناء الواقع وشعرت بحرية وسلام أكثر. وكنت استرخى فى الطبيعة خاصة فى الغابات وعلى شاطئ البحر بعيدا عن نظرات الناس. بعد ذلك بدأت استمتع بمباهج المدينة من المحلات الكبيرة والمقاهى والحيوية والمرح.

ولم يبقى غير حاجز صعب واحد وهو مرضى ماما الآخرين. كنت أعانى من الحقد والحسد قبل أن تبدأ ماما الاهتمام بى من خلال ايزيكل. وعندما يستمر وجود المرضى أكثر من ساعة كانت تأكلنى الغيرة والخوف والغضب على الرغم من أنى متأكدة أن ماما تحبنى جدا. ولكن فى مثل هذه الأوقات كانت عاصفة من الغضب تجتاحنى ولا أستطيع التفكير فى شىء أخر. كنت اجلس أمام التكييف ومثلما كان

يحدث دائما فيتحول كل شيء إلى هلاوس وضلالات. وعندما تخرج ماما أخيرا وتنتهي من هؤلاء المرضى المزعجين بالنسبة لي، وفي الحال يظهر الواقع الجميل مرة أخرى واشعر بالانتعاش بالتواصل معها.

وفي النهاية اختفت عقبة المرضى الآخرين وتم إعادة بناء الواقع واستقراره. وربطتني بماما علاقة وطيدة. وبقى القضاء على عائق واحد وهو: فقدان الواقع خلال فترات مرض ماما. في البداية اعتقدت أنها مريضة عن عمد أو أنها تتمارض كي تعاقبني. وبعدها مررت باضطراب وإحساس بفقدان الواقع في كل مرة تمرض فيها، ولم استطع التعرف عليها خلال هذه الفترات. أخيرا وبفضل ما أظهرته ماما من قدرتي على استرجاع صوتها خلال مرضها بالتهاب الرئة، لم اعد اشعر بالعجز بعد ذلك. وفجأة وجدت نفسي مسيطرة على المرض ولدى الشجاعة للبحث عن أي وسيلة فعالة لاستعادة صوت ماما المفقود مرة أخرى. واكتشفت بعدها أن الواقع ملئ بطرق علاج المرض مثل الكمادات والغرغرة والأدوية- وهو اكتشاف للحب الكبير وتقدير الواقع، وأصبحت أكثر بلوغا(نضجا) ورشدا وأكثر استقلالا عن ماما.

وبهذا الانتصار أطبقت قبضتي على الواقع الرائع وتطور إحساسي به بشكل كبير ومذهل. ومع ذلك وللغرابة كنت افتقده من وقت لأخر عندما تغضب ماما مني وان كان هذا نادرا ما يحدث. ولكن هذه الحوادث القليلة كانت تزعجني بشكل كبير حتى أصبح عندي يقين

أن تكامل الواقع يعتمد كليا على علاقتى الجيدة مع ماما. كانت هى النبع، أو مصدر إدراك الواقع الطبيعى. كان أى تغيير طفيف فى تعاملها معى يغير الواقع تماما إلى صحراء مجدبة. ويعود الواقع دافئ ونابض مرة أخرى بمجرد أن تقبلنى أو تضمنى برقة وحنان. وكانت كراهية الأناس الآخرين عقيمة فى تغيير هذه الظاهرة. وبالمثل فعندما يصل غضب ماما إلى الذروة لا يستطيع احد غيرها أن يعود بها مرة أخرى لحالتها الطبيعية. ولهذا السبب كنت متحمسة لاستبقاء علاقتنا الجيدة باستسلام خوفا من أن يعكر صفوها احد.

وفى هذه الأثناء نجحت فى تقوية نفسى حتى استطعت فى نهاية العامين معارضة ماما وان أدافع عن نفسى عندما تغضب منى وبدون أن افقد الواقع!. وأصبحت مستقلة فى مسالة الإدراك الثابت والمتزن.

ولم يبقى غير أن أصلح حدود شخصيتى، على سبيل المثال فى أول محاولاتى لإحضار شىء بعيد كنت أشير إليه فقط واقف مكتوفة اليدين ولا أحرك ساكنا. بعد ذلك بفترة طويلة من التعليم بدأت افهم انه أنا التى يجب تتحرك للشىء وليس العكس. وحدث نفس الشىء فى وظائف الجسم، عندما تبولت وكان المطر شديد بالخارج لم أكن متأكدة من هذا ليس بولى الذى يمطر العالم واجتاحنى خوفا شديد.

وحدثت مشكلة مماثلة مع ماما، لم استطع أحيانا معرفة من منا يحتاج شىء ما. على سبيل المثال إذا طلبت فنجان أخر من الشاى

وتجيب ماما لكن لماذا تريدين فنجان أخر من الشاى، ألا ترين أننى أنهيت الآن فنجانى؟ وتكون إجابتى نعم هذا صحيح، أنا لا احتاج أكثر من فنجان واحد من الشاى. وكنت اخلط بينها وبينى، ولكن فى أعماقى كنت أريد فنجان أخر من الشاى وأقول مجددا ولكنى لازالت أريد بعضا من الشاى وفجأة أدركت حقيقة أن شعور ماما بالاكتفاء لم يجعلنى اشعر أنا أيضا بالاكتفاء من الشاى. وان كنت اشعر بالخجل لأننى تركت نفسى محاصرة بماما وان أشاهدها تضحك على حيرتى.

وكان هذا النوع من الحيرة يحدث كثيرا. لم اعرف أيا منا يهمه الأمر أكثر ماما أم أنا، أنا أم ماما. وغالبا ما كان يحدث شيئا أخر وهو انفصالى تماما عن أى جزء يمرض فى جسمى. مثلا عندما كنت أعانى ألما فى أسنانى، ذهبت لماما وقلت لها هناك ضرس ينبت ويشق اللثة، تكلمى معه. وكانت ماما تقول له أيها الضرس أنت ستترك صغيرتى رينيه وشأنها وكانت تأمره بهذا، سوف تأخذ الدواء وتدع رينيه تنام، أتفهم ذلك؟. وكنت أجيب أنا عنه نعم ماما افهم.

كان هذا التشخيص لأجزاء جسمى نعمة كبيرة، لأنه عندما يتألم عضو من أعضاء جسمى كنت اشعر بالألم الشديد ليس بجسمى وإنما بشخصيتى. بالنسبة لى كان الألم تطفل، شىء غريب، وفى نفس الوقت كنت اشعر بالأسى على الجزء المتألم منى واحتمى بماما حتى تختفى مشكلة الألم التى تمنعنى من النوم من جهة، ومن جهة أخرى

كى أستطيع مواساة المنطقة المتألمة.

وشيئا فشيئا بدأت أرى الألم كظاهرة طبيعية وتحدث فى الواقع وليس شيء سحرى، وتحققت الوحدة بين جسمى ونفسى بشكل نهائى.

وبقيت عادة عندى طويلا ولم استطع القضاء عليها، هى قولى أنا خائفة من الذئب أو أنا خائفة من البوليس. كلمات كنت أقولها عندما اشعر بالخوف من شيء ما أو أكون فى حالة حزن شديد. حقيقة عندما كنت أقول أنا خائفة من الذئب أو أنا خائفة من البوليس، لم أتخيل أننى خائفة من الذئب أو البوليس وبالتالى عندما يقول الآخرين انه لا يوجد ذئب وإنهم سيحموننى من البوليس لم أكن اشعر بالأمان على الإطلاق. كانت هذه الكلمات مجرد أداة غامضة للتعبير عن خوفى. كان الذئب شيء كبير واسود يعوى هوه، هوه ويرعب الناس. ولكنى لم أرى ذئب ولم أفكر فيه. وحدها ماما فهمت مدى الفزع وراء هذه الكلمات الرمزية. كانت تهدئنى بقولها لماذا أنت خائفة لهذا الحد، لن يحدث لك أى مكروه، ماما هنا لتحميكى، هل تفكرين فى شيء يخيفك؟. وفى غالب الأحيان كانت على حق، وفكرت للحظة أن ماما ممكن أن تموت ونسيت هذه الفكرة بعدها ولكن القلق ظل موجودا. كان سؤال ماما يحدد سبب شعورى بالقلق والخوف وبعدها اختفى القلق نفسه.

مثل هذه الظواهر الصغيرة كانت لا تقارن بما مررت به

وبدورها اختفت هى أيضا.

وان كنت أستطيع توضيح الأمر كذلك، فإن الواقع أصبح أكثر واقعية وأكثر غنى وأكثر استقلالا. الآن أستطيع قبول السيدة سيتشهاى كما هى وليس ماما. الآن أحبها لذاتها وأنا ممتنة جدا للكنز الذى أعطته لى باستعادة الواقع والتواصل مع الحياة.

فقط من فقد الواقع وعاش سنوات فى ارض الضوء القاسية يستطيع أن يتذوق السعادة فى الحياة والشعور الرائع بوجودهما وكونهما جزء من الإنسانية.

الجزء الثانى
(التفسير)

Part II: The Interpretation

١-مراحل تشتت ألانا

I: Stages in Ego Disintegration

استطاعت رينيه أن تصف خبرتها الشخصية لمشاعرها الداخلية خلال مرضها بقدرة استبطان ملحوظة وعالية. وهذه الخبرات أثارت العديد من المسائل كل واحدة منهم لها اهتمام كبير على السبيل لا الحصر: مسالة الانهيار فى الفصام وإدراك الحقيقة من خلال الاضطراب العقلى، والعلاقة بين الهلوسة والهذيان. ونناقش هنا واحدة فقط من هذه المسائل التى ترتبط بالمسائل الأخرى ولكنها تبدو أكثر حيوية وشيوعا فى حالة رينيه وهى مشكلة الأنا أو تشتت وتفكك الأنا.

على الرغم من الاختلاف بين الفصام والاضطراب العصبى (العصاب)، إلا أن الفصام يبدو من أول وهلة على انه مرض الأنا. فانه عند المريض النفسى تداخل بين اللاوعى والواقع، وهذا التداخل يمكن حدوثه فقط عندما ينهار الأنا.

فى الكتاب السابق الإدراك الرمزى برزت أهمية العوامل الأولية التى تكمن فى الأصل النفسى للذهان المشار إليها خاصة أهمية العوامل الشفهية والعدوانية، ولكننا لن نناقشهم هنا الآن، ولكنها يجب أن تبقى فى الذهن فمن خلالها يستطيع الأنا وهو المادة المحملة بالطاقة أن يفسر أعراض الهلوسة والهذيان.

لو انه قبل مرض رينيه كان هناك قطاع من الأنا لديها ظل فى مرحلة الطفولة. ويكمن السبب فى التثبيت على مرحلة الفطام. ولقد أرغمت رينيه على رفض أمها فى الواقع، وهذه التضحية التى لا تطاق تم تعويضها فى أن تكون رينيه والدة نفسها فى الخيال، وهذا بالانسحاب إلى التوحد الذاتى. ونتيجة لعدم تقبل رينيه لهذا الفطام العاطفى الذى هو رمز لكل التضحيات الفرعية، لم يستطع الأنا عند رينيه أن يدرك أن التضحية ضرورية للحياة الاجتماعية ولهذا عندما وصلت الى سن البلوغ وتحمل المسئولية أتضح ضعف متوافق مع الانهيار النفسى.

وتعد المشكلة النفسية للأنا سريعة جدا ومعقدة للغاية، ولا يوجد سوى نقاط محدودة يمكن دراستها والتأكد منها فى حالة رينيه. وستتمركز الدراسة حول مرحلتين هما: تشتت وتفكك الأنا نتيجة لمرض الفصام وإعادة بناءه باستخدام نظام الإدراك الرمزى.

- تطور المفهوم المرضي للواقع

Development of the Pathological Perception of Reality

يكشف استبطان رينيه أن أعراض الاضطراب الذاتية المبكرة تعتمد بشكل أساسى على إدراك الواقع، حيث فجأة تتحول الأشياء إلى أن تصبح هائلة ومقطعة وبعيدة عن بعضها ولا تربطهم أى علاقة، ويبدو الفضاء بلا نهاية. ويأتى بعد ذلك الفزع والجزع الشديد. هذه

الظاهرة من الإحساس بالاغتراب واللاواقعية تم تحديدها فى البداية، بعدها بالتدريج اتسعت لتشمل إدراك الأشياء والأشخاص وإدراك رينيه لنفسها أيضا. وتطابق هذا التتابع مع ازدياد المرض بشكل واضح عند رينيه. بالنسبة لرينيه تمت مقارنة الحالة المرضية حيث أنها مرت بحالة من اللاواقعية التامة التى اختبرتها جزئيا عندما بدا مرضها لأول مرة.

ولكن كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة المؤلمة للمريضة، وهى ظاهرة تتميز بالابتعاد عن الأشياء لوجود انطباع الاتساع الشاسع للاماكن والإحساس بالوجود فى عالم من السينما؟ ربما يكون سبب هذه الانطباعات الغريبة هو الأنا نفسه.

ويظهر عدم توازن للطاقة فى الأنا، وهذه القطاعات تصل بينها أشياء لم تعد تشبع بالطاقة اللبيدوية بل ينقصها الدفء. فى المراحل الأولية من الفصام لا يتم مهاجمة إلا مناطق معينة للأنا الذى يتسبب فى إحساس رينيه بالاغتراب فى مواقف معينة فقط مثل المدرسة أو الشارع وفى هذه الظروف التى تتطلب تواصل اجتماعى. والقطاعات التى يحدث فيها نكوص للأنا هى نفسها التى تتطلب تفاعلا مباشر مع المجتمع. وتعود هذه الطاقة المتمثلة فى اللبيدو إلى أغوار الأنا تاركة القطاعات الاجتماعية فارغة من أى تأثير. وبالتالى يمكن أن ننظر للشعور بالاغتراب على انه أول علامات تفكك الأنا: حيث فقدت رينيه منظورها فى الحياة.

وبشكل طبيعى كان يتم إدراك الأشياء من خلال مقياس نسبى حيث كل شىء فى مكانه المخصص له ومتناسق بزوايا الرؤية. كل شىء يتم إدراكه من خلال علاقته بشىء أخر، علاوة على ذلك كانت هناك وظيفة نفعية لكل شىء مثلا: الكرسى نجلس عليه. ولكن عندما تفقد قطاعات من الأنا الطاقة تصبح الأشياء بلا علاقات فردية-داخلية وتتلاشى القطاعات التى تفصل بينها وتنظمها بخطط مختلفة. لهذا السبب يظهر كل شىء على انه كل فى ذاته منفصل ومستقل واكبر من أى شىء فى الحياة، ولهذا السبب أيضا يبدو الفضاء غير متناهى ولكن بدون عمق أو تحكم وليس له بعد ثالث. وهذا الإدراك المضطرب للواقع هو المظهر الفكرى لفقدان تركيب الأنا.

ولكن هذا الإحساس بالاغتراب له مبدأ أساسى ومؤثر يصاحبه التوتر بشكل مؤكد. من الواضح أن رينيه مرت بخبرات فقدان الواقع حيث انقطع التواصل بينها وبين الأم- المحللة ماما. وأصبح العدوان ضد الأم هو العامل العرضى المؤثر.

ويرجع سبب فقدان الواقع إلى سببين متقاربين أولهما فى حالة تفكك وتداعى الأنا لا تعد رينيه مسيطرة على عالم مستقر ومتوازن بعيد عن عالمها الداخلى، عالم تعلب فيه الأم دورا حيوى حيث أن الأم هى الامتداد الوحيد للمريضة نفسها وهى الوحيدة التى تستطيع أن ترضى احتياجاتها ولكن عندما تفشل فى هذا الدور لا يمكن إدراك الأم. والسبب الثانى هو عدم رغبة الأم- المحللة لتخفيف هذا الاحتياج

الأساسى وإثارة الاعتداء العنيف الذى نتج عنه فصل مؤقت للتواصل الاجتماعى الفعال. وعلى الرغم من عدم قدرته على الظهور بذاته فى الأشياء المحببة، فان هذا الاعتداء عاد لنقطة العودة: حيث يشترط الأنا إحساس قوى بالذنب فى الوجدان الواقعى.

بالإضافة إلى هذا الاعتداء كان هناك سبب رئيسى أخر للإحساس بفقدان الواقع وهو عدم قبول الأم ككائن اجتماعى مستقل بذاته. وإلا إذن ما هى الأم الاجتماعية إن لم تكن هى الواقع نفسه؟

ولان رينيه لم تستطع قبول الأم الاجتماعية فقد انفصلت عن الواقع. وأفرغت قطاعات معينة من الأنا من الطاقة الليبدوية التى هى السبب الرئيسى للحياة. وكانت القطاعات المتبقية من الأنا تعطى صدى لخبرات اعتداء الضلالات ومقاومتها والحرب عليها. لان فقدان جزء من التواصل مع الواقع أحدث إحساس عميق من عدم الأمان والانعزال الذى يرتبط ارتباط وثيق بعالم الكوابيس.

- آليات الدفاع للأنا الذهانية

Defense Mechanisms of the Psychotic Ego

عندما استنتجت رينيه التطور التسلسلى لمرضها أصبح من الواضح أن قطاعات كبيرة من الأنا ترى أن الخطوط التى تحدد الواقع غير واضحة وطمست لدرجة نتجت عنها فوضى من الاضطراب بين الأنا واللأنا أو ما اسماه بالدوين اللهوية أو التصرف الطفولى.

مع التزايد المستمر للاختلال بين استيعاب الأنا نفسه والتوافق مع الواقع، لم تعد رينيه تدرك أو تعى ذاتيتها آو موضوعيتها. ومع فقدان هذه القدرة على الوعى الواضح للانطباعات الداخلية فقد أسقطتهم على العالم الخارجى. وقد ساهمت المكونات أو العناصر الداخلية مثل المعاناة والخوف والعدوان شيئا فشيئا لتجرد الأشياء أو الحركات الجسمية التى تبدو متماثلة من أى نشاط داخلى ومن خواصها الحسية. ومن الواضح أن علاقة العالم الخارجى مع الأنا تتغير باستمرار من خلال عدم القدرة على تحديد الانطباعات التى يدركها الأنا.

ولكن هذا الخرق للمكونات الداخلية إلى العالم الخارجى ينبع أيضا من الشدة والعنف للانطباعات التى نمر بها. وترهب العوامل الأولية الأنا الذى لا يستطيع أن يقاوم أكثر من ذلك. وفى هذا الضعف فان الأنا يستخدم الميكانيزم الدفاعى الوحيد الذى يمتلكه- الإسقاط. هذا هى الفترة الحيوية للمرض الحافلة بالذكريات التى يرتقى فيها التفكير فى مرحلة الطفولة، وهى عملية يصفها بياجيه بالتفصيل.

هذه المشاهد التى حدثت لم تكن مرتبطة بعالم الأنا الداخلى، ولم يكن الأنا مستقل بذاته ولكن مبعثر فى الأشياء من حوله. ولهذا السبب كانت رينيه تسمع معاناتها واحتياجاتها وشعور الكراهية فى صفير الرياح وحفيف الشجر. وكانت تردد هذه الكلمات أليست الرياح تحمل رسالة إنذار للعالم؟. بعدها بوقت قصير كانت متأكدة من أن الرياح يمكنها تدمير الأرض كلها.

ربما يستطيع الفرد أن يطبق كلمة الهذيان على هذا التشوه الخارجى للحقائق وعلاقته بالأنا. أو بالأحرى فان التفكير المحدود للطفل هو دليل ميكانيزم التفكير الرمزى الذى يميز الكبت فى مرض الفصام. مع ذلك فإن هذا الإسهام من المكونات الداخلية إلى قوة الطبيعة نتج عنه بداية تكّون العقل من نواة الهذيان اللاحقة.

عندما بدأ فقدان الوعى الذاتى عند رينيه أخذت تسقط مشاعرها على الأشياء. واختفت الحواجز التى تفصل العالم الداخلى للتفكير عن العالم الخارجى للواقع ودبت الحياة فى هذه الأشياء وباتت تمثل تهديدا لأنها تهذأ وتسخر منها ويزيدوا من معاناتها وكونوا جبهة مع الكبت الذى تشعر بها ضد العالم. وكانت المحللة هى حلقة الوصل الوحيدة بين رينيه والواقع وهى التى تستطيع التخفيف من معاناتها وتسمح لها فى إطار ضيق أن تعيد اكتشاف الواقع مرة ثانية.

بعد فترة قصيرة انفجر لا وعى للانا عند رينيه فى شكل دوافع عدوانية ورغبة شديدة للعودة للام. المنطقة الصحية التى يستقى منها الأنا قوته لكى يطرد عوامل اللاوعى الذى لا يحتمل: وهذا هو تفسير الهذيان. وتم إسقاط العدوان ورفض الذات على النظام الذى هو الآلة التى صممت لعقاب رينيه والناس أيضا. لم تستطع المريضة أن تتفهم نشاطها العقلى على انه داخلى ومستقل فى الوعى ولكنه كان موجود فى الأشياء حولها. وكانت رينيه تدرك الأفكار غير المرغوب فيها على أنها صدى أصوات وهلاوس مرضية. وبنفس الطريقة فقد كان النظام

هو السبب والدافع لتدمير الذات.

وعلى الرغم من ذلك فإن بعض قطاعات الأنا - لسوء الحظ طاعات بسيطة جدا- لا تزال فى خدمة غريزة البقاء ورفض تنفيذ أوامر النظام التى اقرها الأنا المضطرب. طبقا لرواية رينيه فانه يوجد انفصال تام وسط إطار من الكوميديا الذى يتميز بالصدق الكامل. وهذا الازدواج لن يختفى إلا عندما يستبدل الأنا كليا العالم الخيالى بالعالم الواقعى.

عندما حدث نكوص لرينيه لهذه المرحلة لم تعد تملك أى وعى ذاتى. ولهذا السبب فمنذ ذلك الوقت وصاعدا لم تعد تنظر لنفسها على أنها شخص حقيقى ولكن على أنها شخصية مسرحية التى نتحدث عنها بصيغة الغائب. وهذا الفهم الذاتى الجديد يشرح ارتياحها عندما تتحدث معها المحللة بصيغة الغائب مثلما تفعل مع طفل لا يتعدى عمره السنة أو السنتين. وتظهر هذه الظاهرة فى نظرة رينيه للمحللة، التى لم تعد تدركها على أنها شخصية مستقلة بذاتها، ولكن فقط على أنها ماما، أو كتشخيص للأم التى لم تحب ولم ترغب بغيرها.

وسريعا ما تحطمت الحواجز التى تفصل الأنا عن الهو، وأدى الانفجار الغير منظم للعدوان إلى تشويه الإدراك. وفى هذه الفترة قالت رينيه أنها بدأت تضع الأصوات كما أسمتها هى، فى ابعد جانب فى الغرفة. وباستخدام استبطان عجيب وصدق شديد اعترفت رينيه أنها لم تسمع الكلمات أو الأصوات والهمس أو أى نوع من أنواع الأصوات

الأخرى. ولكنها تصرفت كما لو أنها حوصرت بأشرس أنواع الهلاوس السمعية. ولكن كيف يمكن شرح هذا التناقض؟. يصف دو قورسى فى كتابه الهلاوس المريض الذى يبدو انه يعانى من الهلاوس ولكنه يسمع القليل إذا كان أى شىء فهم يفسرون أفكارهم الشخصية.

ولكن هذا لا يبدو صحيحا فى المثال الحالى. فى هذه الفترة، فان هذه الظاهرة للصدى وترديده كانت غائبة. فإن كانت رينيه تغضب وتطابق أى شى لا يوجد حسيا أو فعليا ولكنه دائما يوجد فى نفس المكان. وفى هذه الظاهرة المتناقضة ربما توجد حالة متوسطة بين الهلاوس المرضية والهلاوس الحسية الحقيقية. على المستوى النفسى فان هذه الظاهرة يمكن تفسيرها على أنها انفجار للمواد المكبوتة التى تشمل قدرات الأنا فى حالة من التفكك أو التشتت.

مع إدراك هذه المكونات غير المقبولة للانفجار، فإن الأنا يقوم بإسقاطها للخارج فى نفس وقت حدوثها. ولان الأنا يصطدم بانهيار المريض فلا يوجد لديه الوقت الكافى لتوضيح هذه المشاعر، هذه الميول اللاواعية، فى شكل محتمل لفظى رمزى إلى هلاوس سمعية بخصائصها المألوفة للمساحة والحصر الحسى الغير واضح ويتم قهر الأنا: حيث يضفى ظلاله على الأشياء التى تزعجه ويصطدم بالعالم الخارجى للمشاعر اللاواعية. ويمكن أن نتحدث عن الهلاوس اللاواعية هنا، وبعدها فقط يمكن للانا أن يفسر المادة المكبوتة فى التعبير اللفظى وسوف تسمع رينيه الأصوات بطريقة حسية وحقيقية. ويصبح هناك

فعلا هلاوس سمعية حقيقية.

فى كتاب الإدراك الرمزى تم وصف هذه العملية. لم تستطع رينيه أن تحب نفسها منذ أن رفضت أمها إطعامها وبالتالى رفضت أن تحبها. وعندما أصبح الأنا غير مشحون بالطاقة الليبيدوية التى تنبع من حب الأم واحتلت الأنا قوة مدمرة منذ ذلك الوقت. عندما يتم إحباط العناصر الليبيدوية تفقد غريزة البقاء قدرتها الدفاعية وتترك الأنا للتدمير الذاتى. ويرى الكاتب لاحقا أن واحد من مظاهر غريزة الموت متصل بالمازوخية الأولية.

وسلبت الدوافع التدميرية من رينيه الرغبة فى الحياة وإقنعتها بمحاولة إيذاء نفسها. وفى أوقات معينة اتخذ الهذيان عند رينيه صبغة من الحزن والكآبة.

وقد أثقل الشعور بالذنب كاهل رينيه ولا يمكن نسبته إلى الأنا الأعلى القاسى والتأديبى. وعلى الرغم من أن هذه المشاعر الفطرية بالذنب وعقاب الذات تكمن فى المستوى الأول من الأعراض النفسية إلا أنها تكّون فقط البنية الفوقية التى هى ظاهرة ثانوية فى طبيعتها. حقيقة أن صراع رينيه كله يظهر فى المستوى الشفهى، وهو مستوى وجوده ضرورى فى المرحلة الأوديبية عندما يتبلور الأنا الأعلى ويكمل. والسؤال هنا يأتى من الوجدان الواقعى، هذا العنصر الجديد والهام من الواقعية وصفه الكاتب أوديير لوزان فى كتابة القلق والتفكير السحرى قائلا أن الوجدان الواقعى يمكن رؤيته على انه مظهر حيوى

فى حالة الطفل يمكن أن يتسبب له فى تصور أن كل أفراحه وأحزانه مرتبطين بتأثير خارجى وان حظه اليسر آو العسر يعتمد على تداخل الكائنات والأشياء التى تحيط به.

اتخذت مرحلة ما قبل التعقل آو المنطقية عند رينيه هذا التسلسل: أمى لا تطعمنى لأنها لا تريد أن تفعل هذا، وبالتالى من الإثم والشرور الإبقاء على الرغبة فى طعام- الأم التى تنكرنى. ومجرد غضب رينيه من هذا الفعل من والدتها هو إثما اكبر فى نظرها. وبإتباع هذا الجدال القبل منطقى وجد الأنا دليل الذنب فى عوامل تدمير الذات نفسها. وأخيرا يعود العدوان ضد الأم السيئة الذى يجرؤ على إظهار نفسه مباشرة ويعود إلى نقطة نشأته وهى الأنا وبالتالى يقوى دوافع الموت والتخلص من الحياة..

عندما أمر القرد الصغير توأم رينيه أن يبقى يديه للأسفل اختفت دوافع إيذاء الذات عند رينيه. والحقيقة تؤكد العلاقة الموجودة بين العناصر التدميرية والليبيدو. وباستخدام ميكانيزم المشاركة الخيالية والرمزية التمهيدية أسقطت المريضة هذه العناصر التدميرية على القرد الصغير الذى هو فى نفس الوقت رينيه نفسها. وذلك لأنه عندما تنزل الأم- المحللة ذراعى القرد الصغير وتأمره بإبقائهم للأسفل فان هذا يعنى لرينيه أن أمها تعارض أى شىء قد يضرها وأنها تسمح لها بالحياة. هذا الدليل على الحب منح للمريضة خياليا ووحدها رينيه تفهم هذا وتبنى حاجز قوى من النرجسية لكى تردع عوامل ومسببات الموت

وقتيا. ومع ذلك فانه من المتوقع أن هذا التطور للحماية الخارجية له علاقة بالفعل مع الفعل التخيلى لإنزال ذراعى القرد هو فقط بمثابة مسكن ومهدئ.

- المصادر الفمية للشعور بالواقع

Oral Sources of the Feeling of Reality

ولكى نخرج رينيه من بين مخالب الدوافع الأساسية فلابد من معرفة الأسباب الرئيسية بدلا من البحث فى النتائج الثانوية. فقط عندما أصبح واضحا أن الحاجة الملحة لطعام الأم لابد أن يتم إشباعها تحررت رينيه من العدوان ودوافع تدمير الذات.

عند إعطائها فى الأوقات المحددة قطعة من التفاح وهى رمز لصدر الأم قلت الحاجة البدائية وهى الحاجة المستمرة خلال البلوغ والتى تقيد الأنا بحالة من العدوان الشديد. وبشعور رينيه إنها محبوبة للمرة الأولى بالطريقة الوحيدة التى تستطيع أن تفهمها وهى الطريقة السحرية الخيالية، فقد شعرت بإحساس رائع بالواقع الذى أدهشها وأسعدها فى نفس الوقت. وبخبطة واحدة من العصا السحرية استحال الإدراك الطبيعى مكان الاضطراب والتشوه المرضى. وبدلا من رؤية الناس والأشياء مقطعين ومنعزلين وهائلين فقد عادوا إلى حجمهم الطبيعى وإلى العلاقات المتداخلة بين الأفراد، وأضحت كل الحقيقة والواقع متداخلة مع الطاقة الليبيدوية المستمدة من حب الأم. وأصبح العالم دافئ وحى ومشحون بطاقة ايجابية.

واختفى كلا من الهذيان والهلوسة ولكن بصفة خاصة اختفى القلق الرهيب الذى تولد من الخروج الفوضوى لعناصر اللاوعى إلى الأنا العاجز، وأفسح طريقا للإحساس الجميل بالأمان والحماية وأخيرا أنا محبوبة.

وباختصار فان إنشاء التواصل الممكن بين رينيه والأم- المحللة حتى على المستوى الفمى وحده أعاد لها التواصل مع الواقع على الفور. ويبقى سؤال هنا أليست الأم- الممرضة هى الصورة الأولية للانا؟ وأليست هى بالتالى مصدر كل الواقع اللاحق؟.

- صدمة جديدة ونكوص شديد للانا إلي المرحلة المصيرية

New Trauma and Massive Regression of the Ego to the Fetal Phase

لسوء الحظ ففى هذا الوقت كانت طريقة الإدراك الرمزى بعيدة عن الجدول المتبع فى علاج رينيه وارتكبت المحللة خطأ التسرع بجعل رينيه تستقل عن الأم- المحللة. فجأة انقطع التواصل. وأعاد رحيل ممرضة رينيه المفاجئ عقدة الهجر وأصابتها بصدمة جديدة. وذات يوم رفضت رينيه أن تأكل، وبدلا من الإصرار على إطعامها اعتقدوا إنها لم تأكل لأنها لا تشعر بالجوع. وفسرت رينيه هذا على انه أمر من أمها بعدم الأكل، وبمعنى أخر، بعدم الحياة. وزلزلتها هذه الصدمة وسيطرت عليها قوى تدمير الذات. ولم يعد حب الأم- الممرضة

موجودا ليحمى الأنا ضد أى هجوم. وسقطت رينيه، كما تسرد هى الأحداث، فى حالة من عدم التفكير أو التحدث. وحمل النكوص المترتب على هذه الأزمة رينيه إلى المستوى البدائى أو المرحلة المصيرية.

كانت رغبتها الوحيدة هى العودة إلى جسم أمها. هذه الرغبة التى يمكن تحقيقها فقط من خلال محاولات الانتحار. ومع الاستسلام الكلى لدوافع الموت، لم يعد الأنا المفكك يملك أى قوة لاستجماع الأنا المريض الذى حلله من قبل. وعادت الهلوسة والهذيان للظهور مرة أخرى وقد فقدوا كل المميزات الانفعالية وكل أثار الموضوعية وتضألوا وأصبحوا مجرد أنماط من الهذيان والهلوسة المتمثلة فى الاحتفاظ بالكلمات والحركات الاتوماتيكية. ومع عدم الممارسة لإعادة هيكلة الأنا الذهانى، تدنت المشاعر إلى المستوى الأكثر عنفا وغلظة. وأشارت كل المؤشرات فى هذه الفترة إلى انحدار سريع إلى: الجنون الوجدانى الذى ظهر عندما بدأت رينيه فى التحدث بلغتها الخاصة.

وعلى الرغم من أن مصطلح اللغة غير مناسب تماما لوصف ما كانت تتكلم به رينيه. كانت الصوتيات التى تستخدمها عبارة عن بضعة مقاطع ودائما ما كانت واحدة: ايتشتيو، رايتى، اوفدى، جاو... الخ، التى لا يوجد فيها أى من خصائص العلامات اللفظية الحقيقية أو حتى الرمزية. بالنسبة لعلماء اللغويات فإن العلامة هى اختيار ذا معنى متصل بالأعراف الاجتماعية التى تمثلها، بينما يمثل الرمز معنى.

يشبه ذلك الشيء الذى تعبر عنه الاستعارات. ولم يكن أى من هذا موجود فى لغة رينيه. لم يوجد أى معنى معنوى أو وجدانى على المستوى الرمزى فى هذه الصوتيات ولا يمكن اعتبارها مخططات لفظية. وباستخدام مصطلح بياجيه حيث يطبق الطفل محاكاة صوتية واحدة وهى (واء أو البكاء) للتعبير عن كل الأشياء من حوله. وعلى الرغم من كونها بدائية إلا أن هناك صلة موضوعية بين الأصوات أو الصوتيات التى ينطقها الطفل والأشياء التى يرغب فيها، ولكن هذا لم يكن موجودا فى حالة رينيه حيث لا علاقة بين الأشياء أو الأفعال وهذه المقاطع الكلامية التى كونت تعبيرات لفظية بدائية. وهذه التعبيرات اللفظية صادرة مباشرة من اللاوعى ولها كل الخصائص الرمزية: الجهل، والحركة القصوى وعلاقتها بثبات العلامة والتقليد الحسى. ويمكن رؤيتها على أنها إظهارات لا واعية، احتجاجات وأمانى الطفل الصغير، وفى نفس الوقت المشاركة فى إعادة تأكيد ودعم صوت الأم. ومن هذا فانه واضح جدا لأى مرحلة حدث نكوص للانا عند رينيه.

٢- مراحل إعادة بناء الأنا

II: Stages in Ego Reconstruction

أصبح من الممكن أن نتتبع خطوة بخطوة جذر الأنا تجاه التفكك الذهانى. ومن وجهة النظر التحليلية يمكن أن نلخص أن النكوص المستمر أعاد الأنا بعد المرحلة الفمية إلى المرحلة المصيرية. فوفقا لنظرية جاكسون يمكن تحليل وتمييز الجانب السلبى والجانب الايجابى لكل ظاهرة متميزة للوصول إلى السبب الرئيسى ورائها. سلبيا سعيت رينيه للعودة إلى الأم من خلال المحاولات المتكررة للانتحار، وايجابيا من خلال الهروب إلى التوحد الكامل.

- الادراك الرمزي للمرحلة المصيرية كبداية لاعادة بناء الانا

Symbolic Realization of Fetal Phase as Beginning of Ego Reconstruction

خلال المرحلة المصيرية من النكوص، حددت الكاتبة المحاولات للتواصل مع المريضة. وقتها وبفضل الخبرات العديدة مع رينيه كانت الحتمية واضحة أن لو هذه الطريقة سوف تنجح، كان لابد من الأخذ فى الاعتبار مستوى النكوص وعدم تعديه إلا إذا أظهرت المريضة نفسها إرادة كاملة لهذا.

ولا داعى للقول أن المرحلة المصيرية التى مرت خلالها رينيه،

لم يعد الأنا موجود ككيان واعى، وأصبح الاضطراب بين الأنا واللأنا مكتمل، حتى لم يعد يتوقع أى مشاركة من رينيه. وإضافة إلى ذلك فى هذه الفترة لم تستطع رينيه التعرف على المحللة النفسية، ورغم أنها بذلت جهدا كبيرا لخلق هذه الصلة البسيطة، التى تبدو قادرة على إعادة بناء التواصل مرة أخرى. ويمكن تحقيق هذا فقط عن طريق إرضاء الحاجة الموروثة فى الحالة الحالية من النكوص.

لذلك عندما أبدت رينيه رغبتها فى العودة إلى جسم الأم، كان لزاما مساعدتها وعدم معارضتها فى تحقيق أمنيتها. بالتالى بالنسبة للجانب العقابى، بمعنى أنها تمت حمايتها من محاولات الانتحار بواسطة سترات واقية وحوائط فولاذية محصنة. وبالتالى سيمنحها الدعم للجانب الايجابى مهربا إلى أى درجة من التوحد، أيضا سيتم إقناعها بالعودة إلى جسم الأم والقناعة برغبتها التى تعتمد مباشرة على الأم- المحللة وبهذه الطريقة حتى الحنين الفسيولوجى لوضعها رمزيا فى البحر الأخضر كما أسمته قد تم تحقيقه.

بسبب مرض الكلى كانت رينيه تعانى الآم حادة أدت إلى ضرورة حقنها عدة مرات بالمورفين. كان هذا الأمر متروكا إما للطبيب أو الممرضة. وعندما بدأت الكاتبة (المحللة) بتعهد إدارتها، لم يوجد علاج عضوى بسيط محدد لها. على الرغم من أن الراحة التى قدمها المهدئ أدى إلى إرضاء حاجة رينيه. ذات يوم عندما كانت معاناتها شديدة وحاولت بكل الطرق أن تعض وتضرب نفسها، اخبروها

أن ماما لا تريد رينيه أن تتألم، ماما تريد رينيه أن تذهب إلى البحر الأخضر. بعدها أعطوها الحقنة. وعندما بدا مفعول الدواء فى الظهور، كانت المعلقات على الحائط تغرق وسقطت الغرفة فى الظل الأخضر. كما ترين، ماما أخذت رينيه إلى البحر الأخضر، الآن يمكنها أن تسترخى. وظهرت ابتسامة باهتة على وجه رينيه وهى المرة الأولى منذ وقت طويل الذى تبتسم فيه واسترخت ونامت فى سلام.

بعدها عندما شعرت رينيه بالألم مرة ثانية صرخت الأخضر ذهب وتلاشى وبنفس الطريقة تم استرجاع البحر الأخضر وأعطوها إذن من الأم- المحللة لتبقى ساكنة وهادئة ولتستمع بالصفاء الذهنى الرائع للطفل الذى لم يولد بعد وبالتالى خلق صلة بين المريضة والأم- المحللة. وتم إجبار رينيه على إدراك ماما على أنها مصدر لارتياحها وتحول انتباهها باتجاه الخارج وتواجدت حلقة صلة بينها وبين هذه البيئة حولها.

وأصبحت رينيه مستعدة لإعادة بناء الأنا. بالتأكيد فى المرحلة المصيرية لم يكن الأنا المتكامل موجود. ومع ذلك بعد تحقيق حاجتها ورغبتها، تحول الانتباه خارجا نحو مصدر سعادتها وتحفيز توقعاتها والوعى بديناميتها. حتى هذا الوقت كان كل شىء مضطرب ومتفكك ومتعب للغاية ولم تبعد ضرورة العودة إلى جسم الأم كثيرا عن دوافع تدمير الذات. اكتشفت رينيه بعدها علاقة بين رغبتها وكيفية الحصول عليها. لقد تعلمت أنها عندما صرخت البحر لم يعد موجود، رينيه تريد

البحر الأخضر، عادت ثانية لهذه الحالة من الاستقرار ورجوعها إلى البحر بواسطة حقن المورفين (عندما تحسنت فقط من خلال النظر إلى منظر الشفق فى غرفتها) وبهذه الطريقة نشأت علاقة سببية والتى ظلت أولية حيث أنها لم تنأى بعيدا عن فعالية هذه الظاهرة.

فى هذه المرحلة لم تحظى الأم باهتمام اكبر مما تريده المريضة. ولكن لهذه الدرجة أن هذه الوظيفة تكررت بشكل ممتع، وبدأت رينيه تفصل بين جانبى العلاقة: أدركت رينيه الأم- المحللة كمركز للفعل وسبب الأصول الوجدانية لسعادتها. كانت رينيه حتى هذا الوقت تعتمد على نفسها لكى تناشد وتنادى على البحر الأخضر. وفهمت الآن أن قناعتها وارتياحها جاءا بدون مساعدة خارجية.

عندما تعافت رينيه جسديا ولم تعد حقن المورفين ضرورية، كانت رينيه تدخل إلى البحر ببساطة فقط بإطفاء الأنوار فى الغرفة. وعندما هدأت حاجتها اختفى الشعور بالذنب الذى تواكب مع رغبتها فى الدخول إلى جسم الأم رغم اعتراض الأم. ومنذ هذا الوقت وصاعدا استطاعت المريضة أن تثبت على هذه الرغبة، سبب سعادتها، وبدأت الاستمتاع بوجود الأم من غير حاجة ملحة للدخول لجسم الأم. وكان هذا تقدما عظيما.

وللاستمرار فى هذا التقدم كان لابد من توظيف هذه البصيرة القيمة التى هى الانتباه الأول من المريضة للعالم الخارجى الذى نتج عن إشباع الحاجة البدائية الأولية.

- تخليق صورة مثالية جديدة للذات

Creation of a New "Imago"

كان المنظور الأولى فى هذه النقطة هو أن تكّون رينيه صورة لنفسها، صورة جديدة تستطيع من خلالها بناء الأنا لديها. وفى هذا المستوى الذى حدث فيه نكوص لرينيه، كانت هناك انطباعات وجدانية بدون أى وعى بالنشاط الشخصى، ولهذه الأسباب تم استخدام ميكانيزم الإسقاط، الذى هو ميكانيزم اللاوعى فى الأساس.

أصبحت الدمية، (أولا موسى ثم ايزيكل) حيث تعتنى بها الأم برق وتهدهدها وتدللها، نموذج لرينيه حيث يستطيع الأنا اللاواعى عندها إسقاط نفسها على هذه الدمية. حقيقة أن الأشياء والأشخاص حول رينيه كانت امتداد لنفسها، ولكنهم مختلفين عنها. هذا الميكانيزم تضمن بوضوح المشاركة الخيالية الرمزية، مفترضا وعى كامل للذات. ولفترة كانت رينيه سعيدة لوقوفها موقف المتفرج أثناء العناية بدميتها ايزيكل مستمتعة بهذه العناية بالتفويض (بدلا من الدمية نفسها). أصبح من السهل فى هذه الأثناء إطعام رينيه خاصة إذا تم إرضاع ايزيكل أولا. قامت رينيه بعدها بدفع رأس ايزيكل فى صدر المحللة بيدها وهى تنظر بترقب وانتباه ردة فعلها. وبهذه الحركة أنشأت رينيه علاقة شديدة بين الأنا لديها ورمزه وبين العلاقة الرمزية وما تدل عليه. وعندما تأكدت رينيه أن ايزيكل يتم إطعامه بشكل منتظم وافقت من وقتها أن تطعم نفسها.

حتى الآن لم يتم ملاحظة إلا نقص كامل فى التفريق بين الأنا ورمزه المحدد، إلا فى المرحلة التى يشعر فيها اللاوعى لدى رينيه بالأمان فى وجود حب الأم- المحللة، وتحررت الطاقة التى تخدم دوافع تدمير الذات لتنتقل لغريزة الحفاظ على الذات آو غريزة البقاء. بدأت رينيه منذ هذه اللحظة، وان كان على المستوى اللفظى فقط تمييز نفسها عن رمزها وتقبل نفس الطعام الذى يقدم لايزيكل. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الرمز لم يختفى تماما.

- دور التقليد في إعادة تشكيل الأنا

Imitative Process in the Service of Ego Formation

باستخدام ايزيكل ظهرت صورة جديدة، صورة الطفل السعيد المحبوب من أمه. بدأت رينيه فى هذا الوقت بتبنى نوع وشكل جديد من السلوك المكمل للسلوك السابق، سلوك يمكنها تدريجيا من إعادة تشكيل وتكوين الأنا وتنظيم عملية التقليد.

عرف بالدوين التقليد كواحد من مصدرين لإدراك الذات وإدراك الآخرين والمصدر الأخر هو الإسقاط. يرى بالدوين أن الطفل يصبح على وعى بذاته عن طريق تقليد من حوله. ويقدم بياجيه فى دراسته المتميزة التشكيل الرمزى عند الطفل تكوين وتطور التقليد فى ستة مراحل، غير انه أكد العلاقة بين تطور التقليد وتطور الذكاء. ودقق أيضا على التقليد وعلاقته بزيادة ونمو الوعى الذاتى. وفى هذه المرحلة

المبكرة جدا، يقوم الطفل فقط بتقليد الحركات البسيطة بدون تكيف تسلسلى لنماذج جديدة.

وبالتحول إلى المستوى الوجدانى يمكن أن يطبق هذا فى حالة رينيه. حيث استطاعت رينيه باستخدام تكنيك الإسقاط أن تأكل وحدها، وتقلد نفسها كما قلدت ايزيكل، رمزها، أولا بإسقاط حاجتها على الدمية، ثانيا بتقليد كل ما تسقطه على الدمية من سلوكها هى.

لاحظ بياجيه هذه الظاهرة لدى طفل يبلغ من العمر من ١٢-١٦ شهرا، حيث كان يسقط سلوكه فى الطعام والشراب على الحيوانات ثم يقلدهم هو بدوره. هذه المرحلة التطورية للرمز أطلق عليها بياجيه مرحلة إسقاط التقليد المخطط. حيث يحتل اللعب فى حالة الطفل الدور الرئيسى فى ظواهر الإسقاط. وفى دراسة الأنا الأنفصامى يحظى التشابه بين تكوين الأنا لدى الأطفال وإعادة تكوين الأنا الذهانى باهتمام كبير. ومن وجهة النظر البنائية والظواهرية فإن الأنا الفصامى والأنا الذهانى يمران بمراحل مماثلة، ولكن يختلفان كلية فى الزاوية الوظيفية.

فى مراحل تكوين الأنا المبكرة لدى رينيه، لم تقلد غير توأمها (الدمية) مستنسخة بذلك سلوكها الخاص الذى أسقطته مسبقا على الدمية. تغير هذا التقليد فى الفترة الثانية مدللا على التقدم الملحوظ عن المرحلة السابقة، وذلك لان انتاج السلوك المرغوب بالفعل إسقاطه على رمزه غير تاركا أى تكييف للدافع. وقد يختلط التقليد مع المحاكاة

والمشاركة الخيالية الرمزية.

فى الفترة الثانية اتخذت رينيه الأم- المحللة كنموذج للتقليد والتى أصبحت لها وظيفة مستقلة. ولكنه كان واضحا تماما لو أن رينيه بدأت تقليد الأم- المحللة فإنها لن تقلدها على أنها كائن متكامل، بغض النظر عن نشاطاتها، ولكن ستقلد فقط ما يتناسب مع حاجاتها الأولية، والتى تحددت فى هذا المثال فى منطقة الإطعام فقط.

وبدلا من البقاء سلبية، بدأت رينيه فى تقليد الأم- الممرضة. لذلك فى أوقات الطعام، كانت رينيه تردد كل كلمة تسمعها وكل إيماءة تراها. على سبيل المثال إذا داعبت الأم- المحللة خدى رينيه بيديها وقالت لها اشربى اللبن عزيزتى، تردد رينيه هذه الجملة عدة مرات بنفس الطريقة مع مداعبة خديها فى نفس الوقت. كان التقليد فى هذا الوقت حسى يعكس الاضطراب والحيرة التى تجتاح الأنا لدى رينيه مع الأنا لدى الأم- المحللة. ويمكن حساب التكرار المستمر للجمل بعملية المحاكاة وإنشاء السلوك المقلد. الآن أصبحت رينيه تقلد أيضا بعض الحركات والإيماءات المهمة لتشبه تقليدهم على الرغم من أن هذه الإيماءات تساهم فقط كمعنى وجدانى وسببى تعمل لاكتساب النشاطات من الأم.

وللإيضاح: عندما كانت رينيه تتمنى أن تتم تغطيتها، فكانت تقوم بفرد البطانية عدة مرات وتنظر للمحللة بثبات فى هذه اللحظة. وكان هذا الفعل يخدم للإغراء بفعل السلوك المرغوب فيه أو إعادة فعل

السلوك بواسطة الموضوع المعزز. وهو ما يوضح أن هذا السلوك يتفق فقط مع وصف بياجيه للأساليب الوجدانية للطفل الذى يبلغ من العمر تسعة اشهر أو أساليب استمرار المشاهد المدهشة أو المثيرة له. ومثل الطفل فى هذا المستوى فان نشاطات رينيه لم تكن موضوعية أو خارجية ولكنها متمحورة حول ذاتها.

غير انه بمجرد تثبيت النموذج المقلد، فان التقليد يبعد بدرجات عن هذا النموذج. وباستخدام مصطلح بياجيه مرة ثانية فان هناك ظهور للتقليد المؤجل، تقليد يستقل تدريجيا عن وجود المحللة النفسية. وباستخدام الإيماءة التقليدية فقط تم استدعاء الموضوع الغائب، مدللا على مهارة رينيه الجديدة فى تقليد الأصوات والحركات تماما عندما تكون منفصلة عن النموذج الذى تقلده. فقد كانت رينيه تعامل نفسها كأن شخص أخر يتعامل معها ولكنها لا تكون راضية عن التقليد عندما تكون بمفردها، وبدلا من ذلك فأنها تتوحد مع النموذج المقلد وتصبح هى نفسها أم نفسها. وهنا تظهر تشابه مجددا مع طفل بياجيه الذى تلعب الإيماءة التقليدية دور الترميز، الفرد المقلد للدور الترميزى، مع الاندماج للتقليد الواقعى ومضاهاة الأنا واندماج هاتان الظاهرتان معا.

وظهور هذه القدرة الجديدة لتقليد النموذج الغائب لها مغزى كبير فى تطور الأنا، وتدل على ما نفعله فى بداية التوحد مع الأم، حيث لم يعد النموذج المقلد خارج الأنا ولكنه يتقدم تدريجيا إلى الداخل أو الباطن. ومع ذلك فانه يظل ضرورى وجود جزء من الصلة الجسدية

مع النموذج التى تعزز الصورة العقلية للأم والتى تشاركها رينيه فى التقليد عن طريق وسيط مباشر بينهماا. ولهذا السبب عندما تأكل رينيه بمفردها كان لابد أن تمسك بورقة مكتوب عليها كلمات محددة تقرأها وترددها عدة مرات. ولم تعد الورقة ضرورية عندما أصبح النموذج مستوعبا كليا، موضحا أن الأنا يبدأ منظمته البنائية. ولا يمكن القول بعد أن رينيه على وعى بامتلاك أنا مثل أنا الأم أو أنا أى شخص خر، حتى رغم أنها لم تعد تضلل نفسها بالكامل مع الأم المحبوبة الموازية إلى درجة من الانفصال عن نفسها، ولكنها لا تزال تتحدث إلى نفسها بصيغة الغائب على أنها شخصية مسرحية معلنة قبل وأثناء الوجبات رينيه تشرب اللبن، ماما أعطت رينيه اللبن وكأنها تتحدث لشخص أخر غيرها. وهذه هى المرحلة التثبيت، عندما يرى الشخص نفسه مثل الشخصية المسرحية. ويطلق بيكون على هذه المرحلة الشخص المدمج ليميزه عن الشخص الاحتياطى عندما يتطور مفهوم أنا- لى. وطبقا لهذا الشخص المدمج فأنه يمثل مجموعة من الخصائص المختلفة، والشخص الاحتياطى يمثل الجوهر الدائم وغير المتناقض للشخصية يمثل أنا (أنا نفسى)!. فى حالة رينيه كان الشخص المدمج لا يملك التعميم الذى يصفه بيكون، ولكن يمثله ككينونة معينة تتمحور حول الجانب الفمى، الذى يمكن تسميته الشخص الفمى نسبة للمرحلة الفمية.

كما يوضح فرويد أن التكرار المستمر لكل جملة له وظيفة إنشاء صلة قوية بين معطيات الماضى والحاضر لتعزيز مخطط المحاكاة.

ويمثل مخطط المحاكاة فى هذه الحالة كأداة توصيل عن قرب بين شخص رينيه وبين الأم المقلدة بحيث تضيف رينيه لجملة رينيه تشرب اللبن هذه الجملة الضرورية ماما أعطت رينيه اللبن.

ولا يزال بناء الشخصية فى فترة المشاركة. وباستخدام وسيلة التكرار التى تقوى استيعاب النموذج وتحفظ بفعالية الأم المحبوبة لنفسها. وتحقق المريضة مكسبا على مستوى جديد، مستوى من التداخل مع الأم مع تضمين الوعى الشخصى أو الذاتى. وكما قال بالدوين أن التقليد هو مصدر للأنا والأخر (الأنا الأخر) فى نفس الوقت، ولتحقيق الوعى الكامل لنفسه يقلد الطفل أفعال الآخرين. وبالمثل فى محاولة رينيه لعكس سلوكيات أمها استطاعت أن تصبح على وعى بذاتها، بواسطة الظهور المباشر الناتج عن ظهور أنا. استطاعت رينيه بعدها أن تقول أنا اشرب اللبن، ماما أعطتنى اللبن. ولكنها لا تزال تراه ضروريا أن تعزز التداخل مع الأم بوضع كلمة الأم والجملة المساعدة ماما أعطتنى اللبن وفى النهاية كانت هناك بعض من المشاركة اللفظية تقاوم للبقاء ولكنها أخذت فى التلاشى والتضاؤل بعد فترة.

عندما استطاعت رينيه أن تتعرف على نفسها مع أمها عندها فقط أصبحت مقتنعة بقول أنا اشرب. وأصبحت مستقلة على المستوى اللفظى. وظهر هذا المثال الوحيد جوهريا من الأنا لدى رينيه حيث تمثل كلمة أنا الوعى الدائم وغير القابل للاختزال فى محتويات الأنا المميزة. وهذا الوعى مماثل ومساوى للإرادة والحرية تثبت أن الأنا

الآن مزود بالبنية وأنهى مرحلة البناء الفمى. لم تعد رينيه مجرد شخصية مسرحية ولكن شخص كائن بذاته، لهذا فأن إعادة البناء والتشكيل المتقدمة للأنا قد تأثرت بالأسلوب المزدوج للإسقاط على الدمية ايزيكل وتقليد الأم- المحللة- حيث يكمل كلا منهما الأخر.

- بناء الأنا الجسدي (أنا الجسم)

Construction of the Body Ego

فى هذه الأثناء على الرغم من أن رينيه بدأت تنمى أنا متكامل على المستوى الشفهى، كانت لا تزال جاهلة بامتلاك جسم، أو أنها هى جسم فى الأساس. هذا لان الأنا نفسه مساوى لأنا الجسم وبعض المفكرين المعاصرين يرونه كجزء أساسى من الوعى بالجسم. وقد حددة بياجيه على انه بنسبة ما فان الطفل يبدأ بتكوين الوعى الذاتى ويحرر نفسه ويصبح مفكر للجسم المتحرك فى الفضاء الثابت، ويعى الأجسام الأخرى والعلاقات الموجودة بينها.

وللوصول لفكرة الوجود كواحد ضمن الكائنات المتحركة فى الفضاء، يتطلب الامر بناء متعاون ومتكامل وفى نفس الوقت فكرى ووجدانى. مثل الطفل الصغير، لم تتخيل رينيه نفسها واحدة هى وجسمها، ودليل ذلك أنها كانت تشير لجسمها كما تشير لأى شيء أخر مستقل عنها، على الرغم من انه متصل بها؛ وعندما يمرض أى جزء منه كانت تفصله عن باقى الجسم. ونتيجة لذلك لم تقل ذراعى يؤلمنى

وإنما الذراع مريض، كأنه جزء مستقل عنها وعن باقى جسمها، وبالتالى تحذف الذراع بعيدا عنها بقدر الإمكان. ولنفس السبب كانت تحب أن تسمع ما أجمل جسم رينيه وما أنظفه، أو عندما تقول للمحللة هناك ضرس يشق اللثة، قولى له شيئا. وعندما قالت الأم- المحللة مخاطبة الضرس هل يمكن أن تكون جيدا ولا تؤذى صغيرتى رينيه!. هنا توحدت رينيه مع الضرس قائلة نعم ماما، نعم ماما. وهذه المرونة من الأنا فصلت نفسها وتوحدت مع العضو المريض فى نفس الوقت مدللة كيف أن عملية البناء على المستوى الشفهى تتقدم شيئا فشيئا ويتماسك فى مخطط الشخصية العام. ويوضح هذا كم هو مهم أن تكون على وعى بكونك جسم حتى يخرج تكوين حقيقى للأنا. وينبع فقدان الطفل لمعرفة انه جسم واحد ضمن الآخرين من عدم اكتمال التطور الفكرى، فى حين انه فى حالة رينيه كان السبب هو تفكك الأنا وانسحاب الليبدو (الرغبة الجنسية) من هدفه. لم تستطع رينيه أن تحب جسمها لأنه غير محبوب من الأم- المحللة. كان لابد أن تعجب به رينيه أولا وتلبسه بطريقة جذابة لتقنع الأم- المحللة أن تحبه وتستطيع هى أيضا أن تحبه بدورها. ولتحقيق هذا فقد استخدمت نفس الآليات التى استخدمتها فى الطعام الإسقاط والتقليد. بدأت ترغب فى ملابس جميلة ومهندمة وأصبحت متحمسة للعناية بايزيكل، ثم بدأت بتقليد نشاطات الأم المتعلقة بنظافة جسمها المتمثلة فى الدمية. لاحقا قامت بتقليد الإيماءات والكلمات المكملة المتعلقة بها. أخيرا أنتجت رينيه

كلمات وإيماءات بدون الحاجة لنموذج لتقلده. وتكامل التقليد على المستوى النرجسى ليقدم التوحد مع الأم، ويتطابق النموذج مع صورة الحياة نفسها، موحيا لها بالتقليد. فى هذه المرحلة توحدت رينيه مع جسمها ولم يعد منفصلا عنها. عندما شعرت بألم فى أسنانها أو قدمها كانت تقول أسنانى تؤلمنى أو قدمى تؤلمنى تماما مثلما قالت أنا اغسل.

- القواعد الوجدانية لبناء الواقع

Affective Bases in the Structuration of the Real

على الرغم من أن رينيه على وعى الآن بأنها جسم الا انها لم تستكمل شعورها بالعلاقات الجسدية بعد، هذا المفهوم للجسم فى الفضاء الثابت ضمن الأجسام الأخرى. وباختصار فهى لم تصل بعد لما يطلق عليه علماء المنطق منطق العلاقات حيث أنها لا تزال تقيس وضع وإزاحة الكائنات وعلاقتها بها. لذلك عندما أرادت أن تحدد نقطة فى الاتجاه المساحى، وبدون اهتمام كبير بالعلاقات الدقيقة بين الأشياء، استطاعت رينيه أن تقول يوجد أمامى الشمال وخلفى الجنوب وعلى يمينى الشرق وعلى شمالى الغرب كأنما هى خريطة مرسومة. واندهشت رينيه عندما علمت أن الاتجاهات الأربعة الأساسية تتغير وتتحرك مع حركة جسمها، لأنه مع الدوران نصف دائرة لليمين يصبح الشمال غربا بينما كان الغرب على شمالها.

وهذا يوضح لأى درجة لا تزال هندسة الأنانية موجودة فى

زاوية الرؤية الشخصية لدى رينيه، وان الإحساس بالمكان سوف يتم بناءه ويتضح أكثر فيما بعد. ومنعت نفس هذه الأنانية فهم المنظور، على سبيل المثال، عندما تذهب فى رحلة إلى الجبل فتراه فقد هويته كلما اقتربت منه. ويؤكد هذا المثال سؤالها ولكنه تغير. لماذا اتخذ هذا الشكل؟.

وتتشابه هذه المرحلة من النكوص مع وصف بياجيه فى بناء واقع الطفل، حيث يرجع سبب عدم توافق الهيكلة الزمنية والمكانية إلى التطور الفعال فى عملية البناء. ويجب أن نلاحظ انه على الرغم من أن النكوص الوجدانى يمكن أن تنتج عنه نفس الظاهرة. ففى حالة رينيه فإن البناء التدريجى للعالم المحسوس يرتبط بعلاقته مع التطور الوجدانى لديها. ولكى تصل رينيه إلى مرحلة منطق العلاقات فلابد أن تنشأ علاقات شخصية بين الأنا لديها والأم- المحللة-، التى هى ممثلة الواقع المختارة. وباتجاه النهاية كان حتميا أن تتعرف رينيه على الفكرة الجوهرية لهوية الأم الدائمة، التى هى حتى الآن تنظر إليها على أنها مجرد أم فقط، امتداد لنفسها، وتوحدت مع نفسها. ولأن الليبدو لدى رينيه لم يستثمر بعض القطاعات الاجتماعية لشخصية الأم، فقد فقدت الواقع. ولم تعد رينيه تدرك الأم- المحللة أو تستطيع التواصل معها عندما تستقبل المرضى أو الضيوف أو تذهب للتسوق.

ولدرجة ما فان هذا الواقع الرمزى السحرى كان يرضى حاجات رينيه اللاواعية، وتناقصت الأنانية الأولية تاركة الأنا ليأخذ بآراء

الأشخاص الآخرين. وكما قالت رينيه أن حقيقة استرجاع صوت ماما خلال مرضها بالتهاب الحنجرة، جعلها تستطيع من ناحية أن تتقبل المرض ومن ناحية تكتشف العلاج فى الواقع. وفى هذا الموقف المؤلم لم تعد رينيه قادرة على إدراك مظهر الأم الجديد، ولم تستطع قبوله إلا بالمحاكاة التدريجية وعلى المستوى الرمزى للمواقف المألوفة الأخرى. وبادراك قدرتها على استعادة الصوت الضائع بواسطة استحضاره، لم تعد خائفة من أن تهرب منها الأم حيث أنها الآن تعرف قوتها فى استرجاعها وقتما تريد.

وبواسطة عملية حيوية المادة، اختفى الخوف من المجهول وأصبحت رينيه قادرة على إنشاء علاقة بين الأم المعلومة والمجهولة، الأم على أنها فرد. وبفضل الفعل السحرى، يستطيع الأنا المؤكد الآن أن يستقدم إلى الواقع السلوك المناسب لاسترجاع هذا الصوت، أعدت رينيه كمادات للحنجرة وبخاخة استنشاق للحلق، وبحثت فى قائمة العلاج عن أكثر الأدوية فعالية، وباختصار تصرفت مثل الممرضة الحقيقية. وبهذه الطريقة أدركت رينيه المناطق الأكثر أهمية فى شخصية الأم- المحللة- واندمجت فى الأنا. وفى هذا المستوى تعلمت رينيه تقبل الأم- المحللة فى أدوارها الاجتماعية المتعددة الأخرى كسيدة المنزل التى تستقبل الضيوف وتتسوق وغيرها من الأمور المنزلية. واستطاعت رينيه فى كل من هذه النشاطات أن تنشأ علاقة بين الأم- الممرضة والأم- الاجتماعية.

وفى واقع الأمر كانت الممرضة هى الضيفة الأولى التى أحبتها رينيه ثم الطفلة الصغيرة التى اهتمت بها يليها طبيبها. وكانت أول مشتريات رينيه هى الأشياء التى تفضلها أو الأشياء التى ستهديها وبالتالى كانت هى مركز كل هذه النشاطات. وسرعان ما أدركت رينيه المحللة النفسية كشخص مستقل عنها. ولم يبقى غير تقبلها لمهنة المحللة واستقبال المرضى الذين حولت إليهم كل العدوان المتراكم ضد أخوتها وأخواتها. وهنا أيضا تم تفعيل الإدراك الرمزى لحاجات اللاوعى الذى سمح لها أولا بقبول اهتمام المحللة بالمرضى الآخرين ثم قبول وجودهم بنفس صافية، وأخيرا أن تهتم هى الأخرى بالمرضى وتهتم بالمحللة لشخصها. وتم إدراك شخصية المحللة الفردية والاجتماعية تماما واندمجت مع الأنا وبالتالى إعطاءها هوية دائمة.

وكان هذا التحسن المدهش فى حالة رينيه نتيجة طبيعية. وفى إنشاء العلاقات بين الأنا لديها وبين الأم الاجتماعية، سافرت رينيه بعيدا فى طريق منطق العلاقات. ولم تعد رينيه تفسر كل شيء بالنسبة لأفعالها هى فحسب، ولكن نظرت لنفسها كفرد واحد وسط الآخرين، وتمتلك نفس الحقوق وعليها نفس الواجبات. وبالنسبة لهذا البعد التدريجى عن المركز والمضاهاة الملازمة للواقع بواسطة الأنا، بدأت رينيه التمييز بين الانطباعات الداخلية والعالم الخارجى. ولهذا السبب اختفى السلوك المصطنع والسلوك الحيوى السحرى راضخين للتوافق مع المجتمع. وتمت إعادة تعديل الليبدو للعالم الخارجى وللناس وللعلاقات

المتبادلة بين الأنا والآخرين، مثل الحواجز التى كانت تفصل الأنا عن الواقع. ولشرح الأنا فقد فصلت رينيه عالمها وتطورت ببطء إيثار الآخرين وموضوعية البالغين. وباندماج الأنا مع الطاقة الليبدوية وتغذيه بحب الأم، أصبح الآنا قادرا على أن يحب نفسه وان يعيش مستقلا عن الأم، وتم بناءه بدقة لبناء الواقع والتكيف معه. خاصة انه قادر على استثمار الأشياء والأشخاص بفعالية، إضافة إلى ذلك من خلال إدراك العالم المتوافق والصارم والبائس، توصلت رينيه إلى رؤية مبهجة للواقع الحى والنابض والمتناسق.

خاتمة

III: Conclusions

-قيمة الحقيقة الرمزية في آليات بناء الأنا

Value of Symbolic Realization in Formative Mechanisms of the Ego

فى هذه الدراسة والتزاما بفحص الأنا الذهانى، فإن سرد رينيه لقصتها سمح لنا باختراق ما وراء الرمزية المحكمة المتصلة بالهذيان والهلاوس والازدواجية. والتوضيح من وجهة نظر التحليل النفسى وعلم دراسة الظواهر لفترة الاختفاء أو السكون، لتعدى الأنا ومرحلة الذهان الفصامى التى أظهرت بدون غموض الأهمية الكبيرة لدور الإحباط فى تفكك الأنا. وإليه يمكن نسبة ضعف الأنا الأولى الذى بموجبه يمكن للذهان أن يخترق الأنا ويظهر جليا.

ولان رينيه بدأت حياتها برغبات أساسية غير مشبعة فلم تستطع أن تتكيف مع الواقع بشكل جيد. وباقتراب مرحلة البلوغ أعادتها عقدة البيئة المتطلبة إلى مستوى طفولى اقل من التطور. وتكونت أول علامات النكوص للأنا فى الإدراك الغريب للواقع الذى أدى إلى زيادة القلق الحاد. ومع بداية تأثير المرض على تفكك العالم حيث فقد بناءه الفضائى حتى استبدل بعالم أخر، بشكل جوهرى و شخصى وغير

ثابت. وهذا الفقدان المتقدم للواقع ينبع من انسحاب الطاقة الليبدوية التى احضرها الأنا لتدعم وضع الهذيان والهلاوس. وبواسطة قوة الإدراك الرمزى لحاجتها للتغذية، اختبرت رينيه فجأة الفقدان الوقتى للاحساس بالواقع. وهذا الظهور المؤقت للتواصل مع الواقع فى إطار الذهان الحاد اثبت أن النكوص يستمد قوى معينة ولم يتبلور كما يجب بعد.

وفى الوقت نفسه ونظرا لعدم وجود تنظيم فى الإدراك الرمزى والعديد من الأخطاء المترتبة على ذلك، سقطت رينيه فريسة لأكثر مراحل الانهيار حدة وشراسة، التى تتضمن نكوص حاد إلى المرحلة المصيرية وهو انهيار غنى بالتعقيدات التعليمية من وجهة نظر كلا من الأنا والعوامل الموروثة. بالتأكيد تحت غطاء تفكك الشخصية، يصبح من الممكن دراسة الآليات التى تخدم فى إعادة بناء الأنا، وهى آليات لا تمتلك فى حد ذاتها أى قوة أو طاقة ولا تتخذ أى قيمة إلا بعد إشباع الحاجات الأساسية. كان من الضرورى أن يعوض الإحباط الأولى بوضع رينيه فى البحر الأخضر بالسماح لها بتهدئة الرغبة فى العودة إلى الأم. وبالنسبة لهذا الإشباع الرمزى، فيمكن للمريض أن يستعيد الانتباه للواقع. ومن خلال الأم- المحللة- التى هى مصدر الإشباع، استطاعت رينيه أن تجمل الواقع.

حقيقة أن هذه محاكاة العالم المجرد لرغبة الفرد يمكن بالكاد أن تسمى واقع، ورغم ذلك كانت هذه المحاكاة هى الصلة الأولى التى

تربط رينيه بالأشخاص الآخرين. وفى هذا الوقت تولدت دوافع تدمير الذات من الإحباط المحايد الناتج عن الميول الليبدوية المتولدة من حب الأم، التى تسمح لآليات تكوين الأنا أن تبدأ فى نشاطها.

ويتجلى بشكل واضح التشابه بين عمليات تكوين الشخصية وتطور الطفل، حيث أن كلتا العمليتان تستخدمان ميكانيزمات الإسقاط والتقليد التى تفترض عدم وعى الأنا. ولان الأنا لدى رينيه لم يكتمل بناءه بعد،فقد كانت تقوم بإسقاط حاجاتها ورغباتها على الدمية ايزيكل. وبمجرد تأكدها من حب الأم لها استطاعت استخدام التقليد الذى هو الميكانيزم الثانى الأكثر تطورا، واجتياز كل مراحل التقليد بواسطة الطفل الصغير بداخلها حتى يكتمل عمل التوحد والاندماج مع الأم. ولكن من الواضح أن الأنا يمكنه إتمام تكوينه فقط عندما يتحقق أولا الوعى بالجسم. والواضح أيضا أن الوعى بكون رينيه تمتلك جسما لا غنى عنه للتمييز بين الأنا واللأنا. أليس إقحام بعض المفاهيم المستجدة على العقل الواعى يعتمد على مدى قوة البناء العام للجسم وصحته؟، حيث أن الجسم يشكل على الفور كجزء من الفعل ورد الفعل مهيمن وخاضعين، ويقوم بوظيفة حلقة الوصل بين الأنا والعالم الخارجى ثم الآخرين أيضا.

وحيث أن رينيه ليس لديها أى إحساس بكونها جسم فهى تميز بصعوبة بين خبراتها وخبرات العالم الخارجى. ومثلما تقول رينيه أنها عندما تبولت وكانت تمطر بالخارج فتعجبت لو أنها تستطيع فحص

قطرات المطر وانهارت من الحزن لعجزها عن ذلك. وكان رد فعلها مماثل للأشياء البعيدة وبدلا من القيام لأخذ الشيء الذى تريده كانت تشير إليه فقط بيدها وتنتظر أن يأتى إليها وكانت تتعجب وتندهش من أنها هى التى يجب أن تتحرك لتحضر الشيء وليس هو الذى يأتى إليها.

وبنفس الطريقة إذا قبلها احد وطلب منها قبلة فى المقابل كانت تقول لكن من الذى قبّل أنا أم أنت؟ أو عندما تريد أن تشرب شيئا وتكون الإجابة لكن أنا لست عطشانة، وفشلت نسبيا فى أن ترى المزحة وأجابت باستسلام أوه نعم أنا لم اعد عطشانة. وحدث هذا السلوك خلال فترة نقاهة خالية من أى إشارات مرضية- ذهانية مشيرة إلى أن الجسم لم يكتسب وظائفه المصاحبة للوصل والفصل للأنا بالعالم الخارجى.

لخص فويس لافيل، تلميذ برجسون، هذه الظاهرة بإيجاز: لهذا السبب لا يكون الأنا من غير جسمه الخاص به ومن غير وعى بالعالم التى هى مستحيلة للجسم. وليس الجسم ينتج الأنا بواسطة ظاهرة غامضة ولكن لكى يتواجد الوعى لابد أن نميز أنفسنا عن العالم وبالتالى إدراك حدود أجسامنا. بالنسبة لرينيه كى تستطيع فهم هذه الفكرة المهمة فى تكوين الوعى كان لابد أن تتحرر رينيه من الواقعية الوجدانية التى تحمل عليها وتشكل بناء منيع للبنية الفوقية للشعور العميق بالذنب. وبسبب تأثير فقدان حب الأم الذى منع تطور النرجسية

الطبيعية ولكن من أين تستطيع الشخصية أن تستمد الحب الذاتى من الثقة والشجاعة فى نفسه لو لم يكن من التوحد مع حب الأم؟ وهنا مرة أخرى فأن رابطة المحرك الحيوى (غريزة البقاء) والليبدو يكونان محل التساؤل.

والآن بعد أن امتلكت رينيه غريزة بقاء طبيعية والتى أساسها إشباع حاجتها للطعام بقى أن تمدها بالليبدو الطبيعى. ومن الضرورى التأكيد على اللجوء إلى آليات الإسقاط والتقليد: إسقاط رغباتها (فى امتلاك جسم جميل تعجب وتهتم به) على الدمية ايزيكل، وتقليد اتجاه الأم- المحللة- فى التعامل مع جسم الدمية الرمزية والعناية به ثم العناية بجسم رينيه نفسها.

فى لحظة تلاشى وتضاؤل الواقعية الوجدانية كلية بسبب عمليتى التوحد والاندماج مع الأم المحبة، واكتمال تكوين الأنا تماما واستهلاك الطاقة الموجودة حتى الآن فى هذه العوامل التى تضم الذهان للتخلص من الأنا. وحينها يكون ممكنا التسلسل الهرمى للدوافع الغريزية وتوظيف الواقع مع الليبدو المتوافر حاليا. وبدلا من رفع ميكانيزمات الدفاع ضد احتلال الدوافع الغريزية ونكران الواقع المؤلم وسيقوم الأنا الحر المتكامل بالتكييف مع العالم الخارجى بشدة، وبالتالى إنهاء الوظيفة الرمزية الأساسية والتقليد المهم فى إعادة تكوين الأنا. وهذا لا يعنى الاختفاء دون أى اثر ولكن على العكس فان أهمية دورهم فى تكوين الأنا تؤكد تكامل بناء الشخصية الفكرى والوجدانى الجديد.

وفى الحقيقة فان الرمز هو الذى يكون بديل فى الأصل للموضوع (الشىء) الذى ارتبط به ويتحول بعد ذلك إلى صورة ثم إلى مفهوم. وبالتفكير فى الصور فأنها كانت مرحلة مميزة فى تطور رينيه. وعندما بدأت رينيه تكوين علاقات اجتماعية أولا مع الأم- المحللة- ثم مع الأشخاص الآخرين، فانها لم تشغل نفسها بالتفكير فى الرمز والصورة وهو نوع من التفكير البدائى المتمحور حول الذات ويلجأ إلى المفاهيم الفعلية. وعلى المستوى اللغوى يتحول الرمز إلى علامة اجتماعية تقليدية أو اعتباطية (كما وضح سوسير فى تعريفه). وعلى المستوى الوجدانى يتحول الرمز إلى هوية ذاتية تختلف عن الآخرين.

والتقليد هو مجرد نسخة طبق الأصل للشىء الذى سوف يحرر نفسه تدريجيا من الإدراك ليصبح صورة لها كيانها الخاص ويقوم بدوره بتحرير صورة الأم الغائبة. وحيث أن رينيه تفصل بدقة متناهية ما يخص الأنا وما يخص اللاأنا ستصبح حينها على وعى بالتقليد. فى هذه المرحلة يصبح التقليد متعمد ومتقن ويتكامل مع الذكاء والوجدانية ويضعهم تحت تصرفها.

وبطريقة أكثر تعقيدا وأكثر فعالية، صاحب امتداد هذان الميكانيزمان (الإسقاط والتقليد) قدرة جديدة على التحكم وتبنى عالم الأشياء والأفكار. وبينما يتضح استعداد العالم الصلد الأبدى فى التعامل بعقلانية مع أدوات البالغين لتصنيفات المنطقية وتظهر العلاقات بينهم مثلما يتم إدراك الأنشطة الفكرية. ومن الآن وصاعدا بدأت رينيه

الاهتمام بالعلوم خاصة علم النبات حيث استخدمت شغفها للحقيقة والموضوعية التى هى المستلزمات الأولية فى البحث العلمى.

وعلى المستوى الاجتماعى استطاعت رينيه بوعيها الشخصى المتكامل المختلف عن الآخرين ان تربط تفكيرها مع الآخرين وان تعمل معهم. وكلما زاد تعقلها فى حياتها كلما أصبحت أكثر ميلا لوضع نفسها فى مكان الآخرين ومحاولة فهمهم. ومن وجهة النظر الشعورية كان لابد لرينيه ان تتغلب على العقبة التطورية، المرحلة الاوديبية. ولان المستوى الفمى كان مسدود، لم تختبر رينيه الذروة فى التطور الليبدوى ومع ذلك كان لابد من التغلب عليه. واكتمل هذا بسهولة وبصورة طبيعية. وحاولت رينيه سابقا ان تلفت انتباه زوج المحللة النفسية بواسطة روحها المفعمة بالحيوية والإصرار. عندما كانت مطمئنة الى حب الأب، حاولت ان تقلد سلوك الأم- المحللة- تجاه الزوج ولكن دائما ما كانت مشاعرها متداخلة ومتغيرة. ورغم ذلك فان الإحساس بعقدة اوديب كان موجود، أتضح فى حلم حيث وجدت رينيه نفسها المنتصرة فى جدال مع الأم- المحللة التى ابتعدت عندئذ. وكانت هذه الظاهرة طبيعية والحلم الذى له مكنون نفسى ذا نزعة اوديبية. وسرعان ما تحول اهتمامها إلى أساتذتها ورفقاء الدراسة. وتمنت بشدة الزواج والأمومة وانتظرت بفارغ الصبر فارس أحلامها.

وفى كل مظاهر النشاط الإنسانى وصلت رينيه إلى مستوى البلوغ الطبيعى متخذة طريق تصاعدى للإخضاع الحاد للانا لديها

والواقع الذى يمكن حدوثه فقط من خلال تحجيم الهيمنة المطلقة والتحرر التدريجى من الأنانية.

وبالتالى فأن هذا التحرر لانطباع الأنانية العميق المنغرس فى الجذور يمكن أن يتأثر فقط باليات الإسقاط الرمزية والتقليد. ولو أن هذه الآليات تستطيع لعب دور بنائى فى تكوين الأنا بنسبة معينة كما أنها تعوض الإحباطات الأولية والرئيسية للذهان.

- المفهوم الدينامي في عملية التفكك في الفصام

A Dynamic Conception of the Process of Disintegration in Schizophrenia

خلال هذه الدراسة تم بذل مجهود كبير لتحديد التشابه بين مظاهر معينة من الفصام والتفكير الطفولى. لان التفكك الفصامى يبسط بشكل كبير العمليات النفسية وأصبح من الممكن دراسة آليات الأنا التى تشبه هذه الآليات الموجودة عند الطفل الصغير. ولهذا فان عمليات الإسقاط والتقليد التى يجد الأنا نفسه ويميز نفسه عن اللأنا من خلالها لها نفس الوظائف عند الطفل الصغير مثلها عند المريض الفصامى. وهنا يظهر سؤال لو أن العلاقات القريبة لم تنشأ بين استنتاجات بياجيه عن الطفل وأراء المحللين النفسيين. وتقليل العقلية الفصامية لهذا الطفل سيكون بلا شك خطأ كبير. وستظهر العديد من الاختلافات. ولكن فى وجود مرض يسبب نكوص شديد للمراحل التطورية المبكرة، والظاهرة الموجودة يمكن شرحها وتفسيرها فى ضوء نظريات بياجيه. ومن هذا

التفسير يمكن استنتاج الخاتمة القيمة لما يبدو على انه عملية تفككية ويمكن أن تصبح عملية بنائية. بالطبع فان كل المرضى الفصاميين يستغلون ميكانيزم الإسقاط، والمشاركة والتكثيف والتقليد ليعبروا عن الحياة المريضة التى يعيشون فيها.

على الرغم من ذلك فانها تسمح لهم بالبقاء فى خدمة الدوافع التدميرية والتكوينات الهذائية على الرغم من أن هذه الآليات يمكن استخدامها فى إعادة بناء الأنا الذهانى. وفى حالة الطفل تكون هذه العمليات بمثابة مظهر طبيعى لتطوره الوجدانى الفكرى، بينما فى الذهان فانها تخدم الوظيفة الأساسية لحماية المريض من الواقع المحبط وعدم إشباع الحاجات الأساسية. ولابد أن تكون وجوه هذه الوظيفة تمت دراستها على نطاق واسع بغرض إدراجها فى التحليل النفسى الجديد الذى بنى على الإدراك الرمزى لحاجات المريض الأساسية.

ونأمل أن يوضح هذا الشرح والتفسير المختصر للتفكك وإعادة بناء الأنا الفصامى يوضح أهمية إدراك آليات تكوين الأنا فى العلاج النفسى للمرضى الفصاميين. لأنه إذا اندلعت إحدى مظاهر الذهان اللاواعى إلى الوعى، فإن تفكك الأنا يبدو كواحد من الأسباب الهامة لهذا الاحتلال من اللاوعى. ولهذا السبب فان المحللين النفسيين وعلماء علم النفس الوراثى، بدلا من العمل كلا على حدا، على العكس لابد أن يحاولون توليف كل محاولاتهم توليفا يثبت أنه الأجدر لخدمة الأطباء فى علاجهم لمرضى الفصام.

الجزء الثالث

قائمة المصطلحات

Glossary

اختبار الواقع Reality Testing:

ويعنى القدرة على التمييز بين ما له وجود خارجى واقعى وتدخله الحواس إلى الذهن، وبين ما يوجد فى الذهن من أفكار وغيرها، مما لا يكون ماثلاً أمامنا فى الخارج، ولو تعطلت هذه القدرة، وهو ما يحدث لنا فى الأحلام وما يحدث فى الذهان أحياناً، اعتقد المرء أن للصور الذهنية وجوداً واقعياً خارجياً، فنحن فى الحلم نسقط أفكارنا إلى الخارج ونتوهم أنها أشياء واقعية، وكذلك فى أخيلة الذهانى يتوهم المريض أنه يرى أشياء وهى فى الحقيقة أفكاره الداخلية.

استبصار Insight:

فهم الفرد لذاته ومعرفته بحقيقتها فالعصاب (المريض النفسى) مستبصر وعلى وعى بأنه يعانى من اضطراب نفسى وأنه فى حاجة للعون أو الدعم أو العلاج النفسى، ولهذا فهو عادة ما يذهب من تلقاء نفسه لطلب المشورة، أو العلاج النفسى، بينما الذهانى (المريض عقلياً كالفصامى) فهو لا يكون مستبصراً أو غير واعى بأعراضه أو باضطراباته ويكون على يقين بأنه لا يعانى من أى مرض ولا فى حاجة لأى نوع من العلاج.

استمناء (الذكر) تبظر (الأنثى) Masturbation:

وهو عملية تتضمن التهيج والإشباع الجنسى عن طريق تنبيه العضو التناسلى باليد أو بأى وسيلة آلية، كما قد يتم ذلك دون حك

العضو التناسلى بل بمجرد التخيلات الجنسية المثيرة، ويسمى فى هذه الحالة الأخيرة استمناءً نفسياً .Psychic masturbation

التبلد Apathy:

هو انخفاض وغياب الاستجابة الانفعالية فى المواقف التى تثير الانفعال ويشاهد فى الفصام.

التنفيس اللانفعالى Emotional Catharsis:

تعتبر العلاقة العلاجية السليمة بين المعالج والمريض فرصة سانحة للتنفيس الانفعالى ويعتبر التنفيس أو التفريغ الانفعالى بمثابة تطهير للشحنات النفسية الانفعالية وخطوة هامة فى العلاج النفسى، فالتنفيس عملية ضرورية لتخفيف ضغط الكبت حتى لا يحدث الانفجار وحتى لا يتصدع وينهار بناء الشخصية، وفى العلاج تتاح الفرصة ليفرغ المريض ما بنفسه من انفعالات ويتخلص من التوتر الانفعالى، ويحدث هذا حين يتحدث عن صراعاته وإحباطاته وحاجاته ومشكلاته ومخاوفه واسباب قلقه وأنماط سلوكه المنحرف فى حسن الإصغاء وتشجيع التعبير عن النفس وفى جو آمن خال من الأحكام الأخلاقية واللوم والعقاب.

التوتر Tension:

هو شعور ذاتى بعدم الراحة والاضطراب والتململ وعدم الرضا والحيرة وعدم القدرة على التركيز وعدم الاستقرار والارتجاف وسرعة الحركات والصراع ويشاهد فى القلق وفى الاكتئاب.

الخداع Illusion:

هو إدراك خاطئ مع وجود مثير حسى ويتوقف التفسير الإدراكى الخاطئ على خبرات وتجارب المريض السابقة، ويتأثر بدوافعه وانفعالاته ورغباته المكبوتة، ويمهد له الانتظار والترقب المصاحبان بالتوتر والخوف، ومن أمثلة الخداع فى حالة الخوف إدراك حبل على أنه ثعبان، وفى حالة الفصام إدراك شكل فى طلاء الحائط على أنه ملاك، ويوجد الخداع فى جميع المدركات عن طريق السمع، والبصر والشم والتذوق واللمس.

الشعور Consciousness:

هو وكما حدده فرويد منطقة الوعى الكامل والاتصال بالعالم الخارجى، وهو الجزء السطحى فقط من الجهاز النفسى، ويطلق يونج على الشعور العقل الواعى الذى يتكون من المدركات والذكريات والمشاعر الواعية.

الفزع (هلع) Panic:

هو توتر طويل وقلق مزمن وخوف فجائى حاد وشعور بالخطر وعدم الأمن، ويصاحبه شحوب الوجه واتساع حدقتى العينين وسرعة النبض وسرعة التنفس، وقد يتجمد المريض فى مكانه أو يحاول الهرب أو يحاول الانتحار ويشاهد فى الفصام الحاد وفى ذهان الشيخوخة.

الأحلام Dreams:

يرى فرويد أن الحلم هو الطريق الملكى إلى اللاشعور أو بعبارة أخرى هو تحقيق الرغبة هو المعنى الذى ينطوى عليه كل حلم، فالحلم عند فرويد هو تحقيق مقنع لرغبة مكبوتة، كما أن أغلب هذه الرغبات تمتد جذورها إلى مراحل طفلية، وتتجلى الأنانية فى الأحلام، بمعنى أن كل حلم يدور حول الحالم نفسه، حتى ولو ظهر أحياناً أن بطل الحلم شخص آخر (على سبيل التمويه).

أما مثيرات الحلم ومصادره فقد تكون منبهات حسية خارجية أو داخلية، ولكن هذه كلها يندر حدوثها، ولا تكفى فى نظر فرويد لتقليل وتفسير الحلم وإنما يقوم الحلم عادة على انطباعات حديثة من اليوم السابق، وهو ما يسميه فرويد مخلفات اليوم أو مخلفات النهار Day Residues، والواقع أن هذه المخلفات تمدنا بالكثير من مثيرات الحلم الظاهر، ولكن قيمتها ترجع إلى إثارة ذكريات طفلية مكبوتة، ومن هنا كان المصدر الرئيسى للأحلام هو: المصدر الطفلى.

ويطلق فرويد على الحلم الذى يراه ويتذكره الشخص بعد يقظته ويرويه اسم مادة الحلم Dream Material أو المحتوى الظاهر Manifest Content فى مقابل المحتوى الكامن Latent Content للحلم وهو معناه المستتر الذى يخرج به المفسر.

أما عمل الحلم Dream- Work فهو إلباس محتويات اللاشعور

صورة تنكرية قبل إخراجها إلى المحتوى الظاهر للحلم، حتى لا تقف الرقابة فى سبيل خروجها ويسمى الرقيب هنا رقيب الأحلام Dream Censorوالذى يختص بمنع الرغبات المكبوتة السافرة للظهور بمحتواها الفج إلى مسرح الشعور (الوعى) مما تسبب ألماً للذات أو (الأنا)، وقد يحدث نادراً أن تخرج بعض محتويات اللاشعور فى الحلم سافرة مغافلة الرقيب فتسبب (للأنا) اضطراباً شديداً يوقظ الحالم من نومه فى فزع وذهول ظاهر (الكابوس).

أما عن علاقة الحلم بالذهان أو الأمراض العقلية ولاسيما الفصام، ففى كليهما اضطراب فى الشعور، وابتعاد عن الواقع مع العيش فى العالم الداخلى الخاص، وفقدان الاستبصار Insightولقد فطن بعض الفلاسفة إلى ذلك قبل فرويد فقال كنط إن المجنون (الذهانى) حالم يقظان، وقال شوبنهور إن الحلم جنون قصير، والجنون حلم طويل.

بالإضافة لما سبق فإن الحلم ليس سبباً للذهان أو لظهور أعراض ذهانية وإنما يظهر الاضطراب العقلى أحياناً أول ما يظهر فى الأحلام.

الإدراك Perception:

هو قدرة الفرد على إدراك البيئة عن طريق حواسه وتفسير معناها، فالمثيرات الموجودة فى البيئة تثير الحواس التى تنقل الإحساس إلى المراكز الخاصة بها فى المخ حيث تفسر حسب المعنى المرتبط بها فى الخبرات السابقة.

اللاشعور Unconsciousness:

حسب فرويد يكون معظم الجهاز النفسى وهو يحوى ما هو كامن، ولكنه ليس متاحاً ومن الصعب استدعاؤه لأن قوى الكبت تعارض ذلك وحدد فرويد الرغبات المكبوتة التى يحتويها اللاشعور بأنها ذات طابع جنسى، ويقول أن المكبوتات تسعى إلى شق طريقها من اللاشعور إلى الشعور فى الأحلام وفى شكل أعراض الأمراض العصابية.

العصاب والذهان Neurosis & Psychosis:

لمدرسة التحليل النفسى نظرياتها لتعليل وتفسير كل نوع من أنواع الأعصبة (أى الأمراض النفسية) مثال: عصاب القلق، عصاب الرهاب، عصاب الاكتئاب، عصاب الوهن، عصاب الوسواس االقهرى، عصاب الهستيريا، عصاب توهم المرض، وغيرها من الأعصبة الأخرى، والذهان (أى الأمراض العقلية) ومنها ما هو ذهان وظيفى مثل: الفصام- البارانويا الحادة- البارانويا المزمنة- البارانويا والذهان الوجدانى، والذهان العضوى (المؤقت- وذهان العقاقير والكحوليات، والمقترن بحالات جسمية عامة، وذهان الشيخوخة).

الهو ID:

وهو أحد مكونات الجهاز النفسى فى الشخصية، كما حددها فرويد، كما أنه يعد من أقدم قسم من أقسام هذا الجهاز، وهو منبع الطاقة

الحيوية والنفسية التى يولد الفرد مزوداً بها، وهو يحتوى على ما هو ثابت فى تركيب الجسم فهو يضم الغرائز والدوافع الفطرية الجنسية والعدوانية، وهو الصورة البدائية للشخصية قبل أن يتناولها المجتمع بالتهذيب والتحوير، وهو مستودع القوى والطاقات الغريزية، وهو جانب لاشعورى عميق ليس بينه وبين العالم الواقعى صلة مباشرة، وهو لا شخصى ولا إرادى، كذلك فهو بعيد عن المعايير والقيم الاجتماعية، لا يعرف شيئاً عن المنطق، ويسيطر على نشاطه مبدأ اللذة (والألم) أى أنه يندفع إلى إشباع دوافعه اندفاعاً عاجلاً فى أى صورة وبأى ثمن.

الأنا Ego:

فهو مركز الشعور والإدراك الحسى الخارجى والإدراك الحسى الداخلى، والعمليات العقلية، وهو المشرف على جهازنا الحركى الإرادى، ويتكفل الأنا بالدفاع عن الشخصية، ويعمل على توافقها مع البيئة وإحداث التكامل وحل الصراع بين مطالب الهو وبين مطالب الأنا الأعلى وبين الواقع، فالأنا له وجهان، وجه يطل على العالم الخارجى عن طريق الحواس، ووظيفته هى التوفيق بين مطالب الهو والظروف الخارجية، وينظر إليه فرويد كمحرك منفذ للشخصية، ويعمل الأنا فى ضوء مبدأ الواقع، ويقوم من أجل حفظ وتحقيق قيمة الذات والتوافق الاجتماعى، وينمو الأنا عن طريق الخبرات التربوية التى يتعرض لها الفرد من الطفولة إلى الرشد.

الأنا الأعلى Superego:

فهو مستودع المثاليات والأخلاقيات والضمير والمعايير والتقاليد والقيم والصواب والخير والحق والعدل والحلال، فهو بمثابة سلطة داخلية أو رقيب نفسى وهو لا شعورى إلى حد كبير، وينمو مع نمو الفرد، ويتأثر الأنا الأعلى فى نموه بالوالدين، ومن يحل محلهم مثل المربين والشخصيات المحبوبة فى الحياة العامة والمثل الاجتماعية العليا، وهو يتعدل ويتهذب بازدياد ثقافة الفرد وخبراته فى المجتمع.

ويقول فرويد أن الجهاز النفسى (الهو- الأنا الأعلى- الأنا) لابد أن يكون متوازناً حتى يكفل للفرد طريقة سليمة للتعبير عن الطاقة اللبيدية (الحيوية الجنسية) وحتى تسير الحياة سيراً سوياً.

الاكتئاب Depression:

وهو حالة يشعر فيها المريض بالكآبة والكدر والغم والحزن الشديد وانكسار النفس، دون سبب مناسب أو لسبب تافة، فيفقد لذة الحياة، ويرى أنها لا معنى لها ولا هدف له فيها، فتثبط عزيمته، ويفقد اهتمامه بعمله وشئونه ويشعر بتفاهته، ويصاحب الاكتئاب عادة التدهور الحركى والصراع وفقد الشهية ونقص الوزن وقد يؤدى إلى الانتحار ويعتبر الاكتئاب عرضاً أساسياً فى ذهان الهوس والاكتئاب.

اللبيدو Libido:

والأصل فى هذه الكلمة يفيد الرغبة والشهوة ولاسيما بالنسبة

للجنس أو اللذة، ولكن أغلب استخدامها فى علم النفس يشير إلى الطاقة النفسية أو الناحية الديناميية للغريزة أو السلوك، ولهذا فإن أغلب استخدام لكلمة اللبيدو لا يزال يشير عادة إلى الطاقة الجنسية أو الشهوة الجنسية.

ويسمى اللبيدو أحياناً باسم الموضوع Object الذى يتجه إليه، فإذا كان موضوع الحب هو الذات سمى ذلك لبيدو الأنا (الذات) Ego-Libido وإذا كان موضوع الحب شيئاً خارجياً أو شخصاً آخر كان ذلك اللبيدو الموضوعى.

اللامبالاة Indifference:

وهى فقد القدرة على التعبير الانفعالى وفقد الاهتمام بالأشياء، فالمريض لا يبالى بالمشاعر ولا بالمواقف الانفعالية ولا بالتعبير الانفعالى وتشاهد اللامبالاة فى الاكتئاب.

تحليل نفسى Psychoanalysis:

هو عملية علاجية متخصصة شاملة، طويلة الأمد يتم فيها استكشاف المواد المكبوتة فى اللاشعور من أحداث وخبرات وذكريات مؤلمة، ودوافع متصارعة وانفعالات عنيفة وصراعات شديدة سببت المرض النفسى، واستدراجها من غياهب اللاشعور.

تداعى حر (طليق) Free Association:

ويعنى إطلاق العنان لأفكار المريض وخواطره واتجاهاته وصراعاته ورغباته وإحساساته لكى تتداعى وتسترسل حرة مترابطة

تلقائياً دون انتقاء أو تعمد مهما كان تافهاً أو مستهجناً، ودون حتى التقيد بالمنطق ومهما بدت معيبة أو تافهة أو مخجلة أو محرجة أو بغيضة أو مؤلمة أو سخيفة أو غريبة أو عديمة الصلة بالموضوع، أو بمعنى آخر أن يعبر المريض عن كل الأفكار التى ترد إلى ذهنه فى عفوية مما يتيح الاستبصار Insight بالجوانب اللاشعورية الخافية على المريض، وهذا يعنى أن الهدف من التداعى الحر هو الكشف عن المواد المكبوتة فى اللاشعور واستدراجها إلى حيز الشعور.

تناقض وجدانى Ambivalence:

وهى تعنى أيضاً الثنائية التى تبرز التناقض أو المشاعر المتعارضة بين الكره والحب، أو بين الرغبة واللارغبة، مثال: المريضة الفصامية التى لا تكف عن الهذيان مشيرة لحبيبها بأنه شيطان، ومرة أخرى بأنه ملاك، وهذا على المستوى الإرادى، وعلى المستوى الفكرى كأن يشعر المريض بأنه كائن إنسانى ومرة أخرى بأنه ليس كائناً إنسانياً، وهى تلك الأمور التى اعتبرها بلوير من الأعراض الرئيسية للفصام وجمعها تحت مصطلحات الثنائية الوجدانية وثنائية الإرادة والثنائية الفكرية.

حصر (قلق) Anxiety:

هو نوع من الخوف الغامض غير المبرر، غير المحدد والمجهول السبب والمصحوب بالتوتر والضيق والتهيب وتوقع الأذى وعدم الاستقرار العام، مما يعوق المريض عن الإنتاج ويجعل سلوكه

مضطرباً، أما إذا كان المنبه أو المثير أو الحدث أو الموقف خطراً صريحاً كان الانفعال الذى يثيره هو انفعال الخوف Fearلا مجرد القلق، وإنما يطلق لفظ القلق بنوع خاص على الخوف الغامض الناشئ عن رغبة لم تصب هدفها أو عن أسباب داخلية لا تتضح فى الشعور تكون بمثابة إنذار لا شعورى بالخطر.

كما يعد القلق هو العرض الشائع المشترك فى معظم الأمراض النفسية، وقد يغلب القلق ويصبح هو نفسه عصاباً أساسياً ومرضاً قائماً بذاته هو عصاب القلق.

صراع Conflict:

وهو تعارض بين دافعين أو نزعتين أو رغبتين أو أكثر، بحيث يخبر كل جزء من الشخصية واحداً منها، وهنا يقع صراع بين أجزاء الشخصية أو مكوناتها أو أجهزتها، مما يسبب للشخصية الحيرة والارتباك والتردد فى انحيازها إلى أى منها لترضية وتتجاهل الآخر.

ومن أنواع الصراع:

صراع الأقدام: وينشأ عن وجود موقفين جذابين، مثال: فتاة تختار بين الزواج والعمل.

صراع الإحجام: وينشأ عن وجود موقفين منفرين مثال: جندى بين أن يخوض المعركة أو المحاكمة لو فر من الميدان.

صراع الإقدام والإحجام: وينشأ عن وجود موقفين أحدهما جذاب والآخر منفر، رجل يريد الزواج من فتاة حسناء وأبيها منحرف.

وهناك الصراع بين الأنا والهو والأنا الأعلى، وصراع الأدوار....إلخ

عدم الثبات الانفعالى Emotional Lability:

وهو عدم استقرار وتباين الاستجابات الانفعالية وتغيرها بشدة والانتقال بسرعة من حالة انفعالية حادة إلى أخرى، وتعرف فى هذه الحالة باسم السيولة الانفعالية فالمريض تارة يبكى، وتارة يضحك ولحظة يشقى ولحظة تليها يسعد، ويشاهد عدم الثبات الانفعالى فى الهوس الحاد وفى الفصام المزمن وفى ذهان الشيخوخة.

ميكانيزمات الدفاع Defense Mechanisms:

ويطلق عليها أيضاً: التوافق وحيل الدفاع النفسى وميكانيزمات الدفاع هى وسائل وأساليب لا شعورية من جانب الفرد وظيفتها تشويه ومسخ الحقيقة حتى يتخلص الفرد من حالة التوتر والقلق الناتجة عن الإحباطات والصراعات التى لم تحل، والتى تهدد أمانة النفس وهدفها وقاية الذات والدفاع عنها والاحتفاظ بالثقة فى النفس واحترام الذات وتحقيق الراحة النفسية.

وتعتبر هذه الحيل (الميكانيزمات) بمثابة دفاعات نفسية تستخدمها الذات ضد الإحباط والصراع والتوتر والقلق.

وحيل الدفاع النفسى تعتبر محاولات للإبقاء على التوازن النفسى من أن يصيبه الاختلال، وهى حيل عادية يلجأ إليها كل الناس : السوى واللاسوى والعادى والشاذ والصحيح والمريض، ولكن الفرق بينهم هو نجاح الأول وإخفاق الثانى باستمرار، ووجودها بصورة معتدلة عند الأول وبصورة مفرطة عن الثانى، وما زاد عن الحد انقلب إلى الضد.

ومن حيل الدفاع (الميكانيزمات) النفسى ما يلى:

* **الإعلاء (التسامى) Sublimation:** وهو الارتقاء والارتفاع بالدوافع التى لا يقبلها المجتمع، والتعبير عنها بوسائل مقبولة اجتماعياً، مثال: إعلاء إشباع دافع العدوان إلى رياضة مثل الملاكمة، إعلاء إشباع الدافع الجنسى بكتابة الشعر الغرامى.

* **التعويض Compensation:** هو محاولة الفرد النجاح فى ميدان ما لتعويض إخفاقه أو عجزه الحقيقى أو المتخيل فى ميدان آخر، مما يشعره بالنقص، مثال: شخص قصير القامة يشعر بنقص فيعوضه بالنجاح العلمى أو السياسى (هتلر).

* **التقمص (التوحد) Identification:** وهو أن يجمع الفرد أو ينسب إلى نفسه ما فى غيره من صفات مرغوبة، مثال: تقمص شخصيات الأبطال والنجوم والوالدين، والتقمص يختلف عن التقليد فى أن التقمص يتم بشكل لا شعورى بينما التقليد يتم على المستوى الشعورى ويدركه ويعيه الفرد جيداً.

* **الاحتواء (الاستدماج) Introjection:** هو استدماج وامتصاص الفرد فى بناء ذاته شخصاً أو موضوعاً أو مشاعر أو عواطف ومعايير وقيم الآخرين، ويستجيب وكأن ذلك عنصر من نفسه.

* **الإسقاط Projection:** هو أن ينسب الفرد ما فى نفسه من عيوب وصفات غير مرغوبة إلى غيره من الناس، ويلصقها بهم، مثال: عيوبى لا أراها وعيوب الناس أجرى وراها، مثال: يسقط البخيل صفات البخل على الآخرين وينكرها عن نفسه.

* **النكوص Regression:** هو العودة أو الردة أو الرجوع إلى مستوى غير ناضج من السلوك والتوافق حين تعترض الفرد مشكلة أو موقف محبط، مثال: طفل راشد بعد أن تعلم المشى (يحبو) مثل أخيه الأصغر لجذب الانتباه أو رجل يبكى عندما تقابله مشكلة.

* **التفكك (العزل) Dissociation:** هو فك وانحلال الرابطة بين الانفعال والأفعال، وبين أنماط السلوك المتناقضة، وعزل كل منها فى واد بعيداً عن الآخر، مثال: شخص يصلى ويسرق.

* **السلبية Negativism:** هى مقاومة المسئوليات والضغوط حيث يفعل الشخص عكس ما يطلب منه، أو يتجنب فعله، مثال: الصمت والمقاومة والتمرد والعناد والرفض.

* **العدوان Aggression**: هو هجوم يوجه نحو شخص أو شيء مسئول عن إعاقة بالغة، مثال: الكيد وإلقاء النكات، والسخرية، والنقد اللاذع.

* **الانسحاب Withdrawal**: هو الهروب والابتعاد عن عوائق إشباع الدوافع والحاجات وعن مصادر التوتر والقلق وعن مواقف الإحباط والصراع الشديد.

* **التخيل Fantasy**: وهو اللجوء إلى عالم الخيال لتحقيق ما عز تحقيقه من نجاح فى الواقع، مثال: الاستغراق فى أحلام اليقظة Day Dream.

* **التحويل Conversion**: هو تحويل الصراعات الانفعالية أو الدوافع المكبوتة وتعبيرها عن نفسها خارجياً من خلال العمليات الحسية والحركية أو العمليات الفسيولوجية، مثال: صدمة الانفجار التى تصيب فى ميدان الحرب (صدمة الميدان) وتؤدى إلى العمى الهستيرى.

* **التبرير Rationalization**: هو تفسير السلوك (الفاشل أو الخاطئ) بأسباب منطقية وأعذار مقبولة، مثال: إذا رسب طالب فيقول أن جميع الطلاب رسبوا مثله، أو أن الامتحان صعب أو أن الأستاذ كان يضطهده ... وهكذا، ولذلك فإن التبرير يختلف عن الكذب فى أن التبرير لا شعورى يخدع

به الفرد نفسه بينما الكذب شعورى يخدع به الآخرين.

* **الإنكار Denial:** هو الإنكار اللاشعورى لما هو موجود ليتجنب الفرد واقعه المؤلم أو المسبب للقلق، مثال: إنكار موت عزيز.

* **الإلغاء (الإبطال) Undoing:** هو قيام الفرد بسلوك يعاكس ما قام به فعلاً، مثال: إلغاء الأم عقابها لطفلها بإغراقه بالحب.

* **الكبت Repression:** هو أبعاد الدوافع والأفكار المؤلمة أو المخزية المؤدية للقلق من حيز الشعور إلى حيز اللاشعور حتى تنسى، ويختلف الكبت عن القمع Suppression في أن القمع يتضمن كبح وضبط النفس شعورياً فى ضوء المعايير الاجتماعية.

* **النسيان Forgetting:** هو إخفاء الدوافع والخبرات غير المقبولة عن الوعى والإدراك، مثال: نسيان موعد غير مرغوب.

* **الإزاحة Displacement:** وهى إعادة توجيه الانفعالات المحبوسة نحو أشخاص أو موضوعات أو الأفكار الأصلية التى سببت الانفعال، مثال ذلك: إزاحة كرة الرئيس إلى المرؤوس.

* **الإبدال Substitution:** هو اتخاذ بديل لإشباع دافع غير

مشبع، مثال ذلك: إبدال السلوك العدوانى الموجه إلى أحد الوالدين أو أحد الإخوة إلى لعبة وتحطيمها.

* **تكوين رد الفعل (التكوين العكسى) Reaction Formation:** هو التعبير عن الدوافع المستهجنة سلوكياً فى شكل معاكس أو فى شكل استجابة مضادة، مثال: مهاجمة التفكير الخرافى كرد فعل أو تكوين عكسى للإيمان به، أو الإفراط فى السرور والضحك كرد فعل عكسى لمصيبة كبيرة.

هلاوس Hallucinations:

هى إدراك خاطئ لمثير حسى غير موجود فى الواقع الخارجى، ورغم ذلك فإنها تكون جزءاً من حياة المريض العقلية، هى من صنع العقل ذاته وتمثل مخرج محتويات اللاشعور عندما ينفك المرض النفسى الأنا، وهى تبين حاجات المريض النفسية ودوافعه ورغباته وتعزيز الذات والإحساس بالذنب وعقاب الذات والنقد الذاتى، وتحدث الهلوسات فى الذهان والأمراض التسممية والأمراض العضوية، وتقل الهلوسات عندما يكون المريض منشغلاً بالواقع وتكثر عندما يكون الانتباه ضعيفاً وللهلاوس أنواع منها البصرية والسمعية والشمية والذوقية واللمسية.

بيلوجرافيا

Bibliography

* Freud, Sigmund: Nouvelles conferences sur la psychanalyse. Paris, Gallimard, P.vi.

* Lavelle, Louis: De l'être. Quoted by Foulquie, p.: L' Existentialisme. Paris, Presses Universitaires de France, p. 128.

* Odier, Charles: L'angoisse et la pensée magique. Neuchâtel, Delachaux and Niestlé, 1948. P.103.

* Paiget, Jean: La formation du symbole chez l'enfant. Neuchâtel, Delachaux and Niestlé, 1948. P. 113.
-: La construction du réel chez l'enfant. Neuchâtel, Delachaux and Niestlé, 1948. P. 121.

* Pachon, Edouard: La personne et la personnalité vues a la lumière de la idiomatique française. Rev. franç. de psychanalyse 10:117, 1938.

* Sechehaye, Marguerite: La réalisation symbolique (nouvelle méthode de psychothérapie appliquée a un cas de schizophrénie). Rev. suisse d. psychol.et d. psychol. appliquée (suppl.) 5" 17, 27, 87, 88, 102.

* De Saussure, Ferdinand: Cours de linguistique générale. Edited by Bailly, Charles, and Sechehaye, Albert. Lausanne and Paris, Payot, 1916. P. 130.

فقدان الواقع واستعادته

سيــرة ذاتيــة لفتــاة فصــامية

REALITY LOST AND REGAINED

Autobiography of a Schizophrenic Girl



ISBN 977-05-2774-2

9 789770 527740

مكتبة الأنجلو المصرية
THE ANGLO-EGYPTIAN BOOKSHOP
The World of Words & Thoughts
www.anglo-egyptian.com